في خصائص الثقافة الإسلامية
المظهر والأثر

إعداد

أ. د. زياد خليل الدّغامين

أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى

في خصائص الثقافة الإسلامية: المظهر والأثر

أ.د. زياد خليل الدغامين (١)

ملخص البحث :

تناول هذا البحث موضوع خصائص الثقافة الإسلامية: المظهر والأثر، فبيّن قدراً كبيراً من هذه الخصائص، من أهمّها: استنادها إلى الوحي، وانسجامها مع الفطرة والعقل، واتصافها بالشمول، والتوازن، وإيجابيتها، وإنسانيتها، واختصاصها بالثبات والمرونة، وانسجامها مع الكون، وهي –كذلك – مختصّة بكونها مثالية وواقعية.

وتبيّن أنّ كلّ خاصية تتجلى في مظاهر عديدة، وينعكس أثرها على المثقف المسلم من حيث فكره وسلوكه وقدرته على التعامل مع الخالق الجليل سبحانه، ومع الكون المخلوق بكل ما فيه من موجودات. ويتم هذا التعامل بأمانة وعدالة وموضوعية.

إنّ خصائص الثقافة الإسلامية تتيح لها البقاء والخلود مهما تعرّضت للغزو من قبل الثقافات الأخرى، وليس ذلك إلا بسبب استنادها إلى الوحي قرآنا وسنة.

Some of The Characteristics of the Islamic Culture: Form and Effect

Abstract:

This research presents a large number of the characteristics of the Islamic culture. The most Important of which are its being based on divine revelation, its being harmonious with instinct and reason, comprehensive , balanced, objective, humane, stable, flexible, harmonious with universe,ideal,and realistic.

Each characteristics is manifested in different aspects, and it affects knowledgeable Muslims thoughts, behavior, and ability to interact appropriately with Almighty Creator, the universe and all creations in an honest, just. And objective manner.

The characteristics of Islamic culture allows it to live forever, no matter how many times it might get invaded by foreign cultures. The main reason for this eternity is being divine revelation.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة :

١. أهمية الموضوع وطبيعة البحث فيه:

تعدّ الثقافة من المصادر التي تسهم في تشكيل عقل الإنسان وبنية تفكيره، وتبرز خطورة هذا المصدر في وقت يزخر فيه المشهد الحضاري بثقافات عديدة، اقتحمت الحدود والخصوصيات، وتجاوزت الحجب، ولم يعد بالإمكان الهروب منها أو الانعزال عنها، بل تجدها قد زاحمت الثقافة الإسلامية في تشكيل عقل المسلم وبناء منهج تفكيره، ولربما أسهم في ذلك جهل كثيرين بقيمة الثقافة الإسلامية المتفرّدة في خصائصها.

لقد كثرت تعريفات الثقافة بوجه عام والثقافة الإسلامية بوجه خاص حتى بلغت العشرات، والقصد هنا متوجّه إلى اختيار تعريف نبني عليه خصائص الثقافة الإسلامية ومظاهرها وآثارها، وليس القصد متوجهاً إلى حصر هذه التعريفات ومناقشتها.

يعدّ تعريف إدوارد تايلور للثقافة أقدم تعريف إنساني لها بحسب بعضهم، إذ يقول: إنها "ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع".([٢]) ومن أخطر ما ينطوي عليه هذا التعريف غياب موقع الوحي المنزّل وما له من أثر وقيمة في صياغة ثقافة الإنسان وتشكيلها. إضافة إلى الخلط الواقع بين ما هو منتج بشري وما هو وضع إلهي كالدين والعقيدة! وأنّ المعتقدات تتساوى مع الفن والأعراف والعادات في تشكيل الثقافة، ولا تشكل معياراً للفن والأعراف والعادات! وهذا – كما يذكر بعض الباحثين- بسبب" أن الغرب ينظر إلى الدين على أنه ظاهرة اجتماعية تعالج كأي ظاهرة أخرى، ولا مانع من إخضاع الدين للمفاهيم الفكرية الجديدة الناشئة من تطور الدراسات الفلسفية غير آبه لما ينجم عن ذلك من انهيار العقيدة، ودمار القيم، وضعف سلطان الوازع الديني على النفوس، وأوضاع الحياة.([٣])

وتداول هذا التعريف وغيره في البلاد الإسلامية بين المثقفين المسلمين على الرغم من آثاره الخطيرة، يدعو إلى تعريف يبرز خصوصية الثقافة الإسلامية، ولعلّ من أرجح التعريفات وأكملها في تعريف الثقافة الإسلامية: "أنّها معرفة عملية مكتسبة، تنطوي على جانب معياري مستمدّ من شريعة الإسلام ومؤسس على عقيدته، وتتجلى في السلوك الواعي للإنسان في تعامله في الحياة الاجتماعية مع الوجود".([٤]) وبتعريف أشدّ اختصاراً، وأكثر تركيزاً، يمكن القول: إنّ الثقافة هي منظومة المعارف القيمية المستمدّة من الإسلام التي تنظم التعامل الإنساني مع الوجود([٥]) فهي معرفة منبثقة من القيم، تتجلى في واقع عملي، وتشكل معياراً واضح الأسس في التعامل المنضبط مع مفردات الوجود كافّة. ويؤكد هذا قول بعضهم أنّ" ثقافة أي أمة يجب أن تقوم على أساس من القيم التي تسود مجتمعها، وهي قيم وثيقة الصلة بالعقيدة والفكر والسلوك ونمط الحياة، ووجهة الحركة، وتحديد الهدف. كما أنها عماد التراث الروحي والنفسي والاجتماعي".([٦]) وقد عدّ مالك بن نبي موضوع القيم أساساً في تشكيل مفهوم الثقافة.([٧])

٢. **أسباب اختيار الموضوع:**

تأتي الكتابة في هذا الموضوع إسهاما في تأصيل موضوع خصائص الثقافة الإسلامية وما لهذه الخصائص من مظاهر تتجلى في طريقة التعامل مع مفردات الوجود، وآثار تترتب على تلك الخصائص، لما أنّ كثيراً مما كتب في هذا الموضوع لم يُظهِر فرقاً بين خصائص الثقافة الإسلامية والخصائص العامّة لدين الإسلام ورسالته السمحة، أو للنظم الإسلامية، أو للعقيدة الإسلامية، أو للتشريع الإسلامي. صحيح أن المسميات قد تكون واحدة، لكن مظهرها وأثرها يختلف من موضوع إلى آخر، ففرق بين الإيجابية حين تكون خاصية للعقيدة أو التصور الإسلامي، وحين تكون خاصية للثقافة من حيث مظاهرها وآثارها. وسنبيّن هنا أهمّ هذه الخصائص، وما لها من مظهر، وما يترتب عليها من أثر.

٣. **الجهود السابقة:**

لعل كتب الثقافة الإسلامية من أكثر الكتب تداولاً وانتشاراً في المؤسسات العلمية الجامعية، وذلك أن مادة الثقافة الإسلامية هي مقرر دراسي في جامعات العالم الإسلامي، ولذلك لن أذكر قائمة بالمؤلفات التي كتبت في الثقافة الإسلامية. ولكن، لم أجد من تناول خصائص الثقافة الإسلامية بهذا الأفق، فبين مظاهرها وآثارها وهنا يكمن الفرق. وقد درّست هذه المادة لسنوات عديدة، فوجدت الدراسات القائمة لم تفرّق بين خصائص الدين وخصائص الثقافة الإسلامية!

٤. **منهج البحث:**

سيعتمد البحث منهج الاستنباط بدرجة أساسية، وسيفيد من المناهج الأخرى كالمنهج الوصفي والمنهج التحليلي عطفاً على المنهج الاستردادي.

٥. **هيكل البحث:**

سيقع البحث في تسعة مباحث، وينضوي تحت كل مبحث مطلبان أو أكثر:

المبحث الأول: استنادها إلى الوحي

المبحث الثاني: انسجامها مع الفطرة والعقل

المبحث الثالث: اتصافها بالشمول

المبحث الرابع: اتصافها بالتوازن

المبحث الخامس: ثقافة إيجابية

المبحث السادس: ثقافة إنسانية

المبحث السابع: ثباتها ومرونتها

المبحث الثامن: انسجامها مع الكون

المبحث التاسع: ثقافة واقعية مثالية

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج

المبحث الأول

استنادها إلى الوحي[٨]

تستقلّ كلّ ثقافة عن غيرها من الثقافات في خصائصها بفعل القيم والمبادئ والتصوّرات والمصادر التي تحكم تلك الثقافة وتوجّه سيرها، سواء أكان مصدر تلك التصورات وضعياً من اجتهادات البشر ورؤاهم، أم كان هذا المصدر خارج إمكانات البشر وقدراتهم. وتبعا لذلك، فإنّ الثقافة الإسلامية تستقلّ عن غيرها من الثقافات بخصائص عديدة تجعل منها ثقافة فريدة متميّزة عن غيرها، وذلك لما انطوت عليه من حقائق، وقامت عليه من تصوّرات في نظرتها إلى الخالق جلّ جلاله، وإلى الكون والإنسان والحياة. هذه النظرة مبنية على علم يقيني مطابق للواقع وناشئ عما لا يحصى من أدلة وبراهين.

ومعنى استنادها إلى الوحي – قرآنا وسنّة– أنه يشكل قاعدتها ومنطلقها ونقطة ارتكازها، وتتشكل من هذا الاستناد وتنبني عليه كل خصائص الثقافة الإسلامية، فهو الأساس الأهم، والمحيط الأعظم لما تتضمنه من معارف قيمية، وذلك للأسباب الآتية:

١– أنّه المؤسس لتصوّراتها ومثلها وقيمها، والمنشئ للعلاقة بين أفرادها ومجتمعاتها، والمنظم لهذه العلاقات على أسس من العدالة والتكافؤ والمساواة بين الناس جميعاً.

٢ – أنّه المرجعية الأساس التي تعتمد عليها الثقافة الإسلامية في مواجهة التطورات والتحديات، وبناء الحياة والحضارة الإنسانية، والتعامل مع كلّ جديد، والانفتاح عليه بوعي وبصيرة.

٣– أنّه العاصم للثقافة الإسلامية من الذوبان أو الانصهار في الثقافات الأخرى، أو الانحراف وراء مسارات غازية أو قيم وافدة، فمنه تستمدّ الاستقلالية والتميّز والثبات، وبه تستعصي على الموت ويكتب لها الخلود والبقاء.

٤ – أنّه المعيار الذي تتمّ به عملية الاقتباس والاستمداد من الثقافات

الأخرى والانفتاح عليها فيما يتصل بالحياة الإنسانية ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية... وتعاملها مع الوسائل والأدوات والأفكار والمخترعات والمكتشفات الجديدة.

٥ – بما أنّ الوحي يشكل امتدادا عقدياً وروحياً عبر سلسلة النبوّة إلى آدم عليه السلام، فإنّ ذلك يجعل من التعامل مع الثقافة الإسلامية أمراً ليس مستغرباً، فهي مألوفة لجماهير البشر الذين لهم اتصال بسلسلة النبوة. قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى: ١٣)

ومن ثمّ فإنّ مظاهر هذا الاستناد وآثاره تتجلى في ما يأتي:

المطلب الأول: مظاهر استناد الثقافة الإسلامية إلى الوحي

إنّ استناد الثقافة الإسلامية إلى الوحي يتمظهر في استمدادها منه المعارف القيمية المعيارية الكاملة في التعامل مع الخالق سبحانه وما له من حقوق على العبد، وأسس التعامل مع الآخرين وما لهم من حقوق، وأسس التعامل مع الذات وما لها من حقوق، وما عليها من واجبات. وكذلك أسس التعامل مع الكون بناء وإعمارًا، وتسخيرًا واستثمارًا لما أودع الخالق جلّ جلاله فيه،...، فالوحي على هذا يعدّ نقطة ارتكاز واستناد وإمداد لهذه الثقافة الفريدة.

كذلك، فإنّها لتلك المعايير الواضحة يمكنها أن تهدي الحياة الإنسانية إلى الرشد والسداد، وتحقّق مبدأ العدالة والمساواة بينهم، وتقود الجهود الإنسانية المادية والمعنوية نحو المعرفة التامّة بتوحيد الخالق سبحانه وتعالى.

وإذا كانت نقطة الانطلاق تستند إلى الوحي، فإنّ نقطة الانتهاء تقود إلى علم يقيني بمنزِّل الوحي وخالق السموات والأرض. وفي ظل هذا العلم يتفيأ

الإنسان موقعه في هذا الكون من حيث إنّه أسمى مخلوق، وأكرم خليفة، أنيط به أشرف مهمّة، وأسمى غاية، إنّه مخلوق أعدّه الله -عزّ وجلّ- ليكون خالداً في جنّة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين. قال تعالى : ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ (آل عمران: ١٣٣)

المطلب الثاني: من آثار استناد الثقافة الإسلامية إلى الوحي

يترتب على كون الثقافة الإسلامية مستندة إلى الوحي أمور عدّة، منها:

أ - توجيه المسلم إلى تنظيم حياته وبناء أمّته وصناعة حضارته في ضوء الاعتقاد الحقّ بالله الخالق، والتصوّر الحقّ للكون المخلوق؛ لأنّ هذه التصوّرات أكبر من أن يصل إليه الإنسان بعقله وفكره، بل لا سبيل له إلى صنع تلك التصوّرات من تلقاء نفسه، لكن له الحقّ في أن يدرك ويستدلّ ويناقش ليصل إلى القناعة والتسليم المؤيّد بالحجّة والبرهان، فتسليمه بهذه التصوّرات ليس مبنياً على عواطف أو أحاسيس، أو خيالات وأوهام، بل على علم وهدى وبصيرة.

إنّ حاجة الإنسان ماسّة إلى مُثُل عليا، وآفاق واسعة تسمح له بأن يحلّق في عالم الكمال على حسب ما بينه الوحي وهدى إليه، والمسلم لا ينظر إلا إلى معالي الأمور وأشرافها، وليس ثمة ثقافة يمكن أن توفّر للإنسان هذا الأفق في السموّ والرفعة، يشهد لذلك توجيه الرسول الأكرم ﷺ :"إنّ الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها"(٩) والثقافة الإسلامية تلبّي طموح الإنسان من هذه الناحية، ويمكن أن يصل بأخلاقه وسلوكه إلى مرتبة الملائكة المقربين، فقد أثنى الله تعالى على المحسنين الذين ورد ذكرهم في القرآن في ثلاثين آية، منها خمس آيات تشهد بحبّ الله لهم، كما في قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ ﴾ (آل عمران:١٤٨) وإذا كان معنى الإحسان كما ورد في قوله ﷺ :" أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه

فإنّه يراك"[١٠] فهذا يعني أنّ الثقافة الإسلامية تتيح لمعتنقها أن يسمو في عالم الكمال ويرقى في عالم معرفة الله سبحانه وتعالى.

ب- خلوّها من التناقض والاختلاف والعوج فيما بين قيمها ومفرداتها وتعاليمها وأخلاقياتها وكلّ ما تدعو إليه من عقائد وشرائع، فلا يمكن أن تتصادم هذه المفردات والتعاليم والقيم مع بعضها. ولا يمكن أن ينشأ في ظلها أفراد يعانون من انفصام في الشخصية أو اضطراب في الفكر والسلوك. وهذا يبعث على الأمن والسكينة والاستقرار في حياة الإنسان، في حين تجد الأفراد في ظلّ الثقافات الأخرى يعانون من أزمات واضطرابات خلقية وسلوكية ونفسية، بل يمكن أن يظهر الفرد في ظل تلك الثقافات بأكثر من شخصية، فهو في السرّ غيره في العلانية. وما يراه بعضهم خيراً قد يراه الآخر شرّاً، وما يراه بعضهم معروفاً، قد يراه الآخر منكراً.

ج – الانسجام وعدم التناقض في سير الإنسان وتعامله مع الخالق والكون والإنسان. وحين يسير الإنسان باتجاه الوصول إلى هذه الحقائق، فإنّه لا يسير وراء سراب، بل يسير ليصل إلى ما في هذا الوجود من حقائق، ولتتجلّى له آثار القدرة الإلهية، وآثار الحكمة الربانية، أي: إنّ هذه الثقافة عازمة على أن تصل بالإنسان إلى إدراك الأهداف العظمى التي تمثل غاية هذا الخلق وسرّ وجوده.

ومن جهة أخرى، فإنّها –الثقافة الإسلامية- تبني إنساناً واضحاً مع نفسه ومع الناس من حوله، فالإنسان هو الإنسان ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانيةً، منسجماً مع نفسه، مظهره كمخبره، وظاهره كباطنه. ولذلك، فإنّ التعامل مع الناس بوجهين ضرب من النفاق الذي تأهّل صاحبه ليكون في الدرك الأسفل من النار، وإنّ تعامل الإنسان مع ذاته فينبغي أن لا يكذب عليها أو يخدعها، وإنّ تعامله مع خالقه ينبغي أن يكون مستقيماً؛ يوجّه النبيّ ﷺ إلى هذا المعنى، فيقول:" تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"[١١] وإنّ الإنسان إذا قام بعمل قصد فيه طلب الشهرة والسمعة والذكر

الحسن في الدنيا، فإنّ عمله سيكون وبالاً عليه يوم القيامة؛ لأنّه قد بناه على أساس من الرياء، حتى لو لبس الإنسان لباس شهرة في الحياة، لقوله ﷺ :" من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة"([١٢]) فلا بدّ أن يكون الإنسان شخصية واحدة غير مزدوجة المعايير، وغير مضطربة الخلق والسلوك. ومن هنا نجد نصوص الوحي قد شنت حملة شعواء على النفاق والمنافقين الذين تلوّنوا في التعامل مع الناس، ومع أنفسهم، ومع خالقهم جلّ جلاله.

وهي كذلك تريد أن تربط الحياة الدنيا بالآخرة، ليستكمل الإنسان حياته الأبدية. وهذا ما تفتقر إليه الثقافات الأخرى؛ فما الذي يمكن أن تقدّمه الثقافات الأخرى لأتباعها؟ هل تملك أن تتصرف في الإنسان بعد الموت أو تضمن له حياة سعيدة بعده؟ وهل تملك أن تربط له هذه الحياة بالحياة الآخرة وعلى أيّ أساس؟ وماذا ستقدم من غذاء لأرواح الخلائق العطشى، والناس الظمأى؟

د - اكتسابها قوّة في منطقها ومنطلقها، وبسبب هذه القوّة كانت عصيّة على كلّ حملات الاختراق والإبادة منذ فجر الإسلام وإلى يومنا هذا، وستبقى عصية على تلك الحملات إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. ولعلّ العمر المديد الذي عاشته هذه الثقافة وهي اليوم في قرنها الخامس عشر لدليل أكيد على اكتسابها صفة القوّة بسبب استنادها إلى الوحي الخالد المحفوظ، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر:٩). ولم يعهد عن ثقافة من الثقافات أنها عمّرت هذا الزمن المديد الذي بلغته الثقافة الإسلامية.

المبحث الثاني

انسجامها مع الفطرة والعقل

نعني بالفطرة: القابلية والاستعداد لدى الإنسان، وعبّر عنها الجرجاني بقوله:"الفطرة الجبلّة المتهيئة لقبول الدين"([١٣]) أو هي الطبيعة التي أودعها الله تعالى في تكوين بني آدم"([١٤]) وانسجامها مع الثقافة الإسلامية يعني تفاعلها وتوافقها معها. وانسجامها مع العقل يعني أنّ تعاليمها ضمن إمكاناته من حيث الفهم والوعي والإدراك.

وبعبارة أخرى، نعني بكونها منسجمة مع الفطرة والعقل أنّ شيئاً مما تستند إليه من حقائق أو عقائد أو شرائع أو قيّم أو أخلاق ليس مما يعكر صفو الفطرة ويعرّضها للشك، أو يشوّش صفاء العقل ويعرّضه للحيرة، أو يبعث الاضطراب في القلب ويدفعه إلى الريبة، بل هو مما ينسجم معها، ويعدّ من المطالب الضرورية بالنسبة إليها، وذلك أنّ هذه الحقائق استطاعت أن تنفذ إلى أعماق الإنسان ووجدانه وتبني معه علاقة وئام وانسجام، فليس هناك ما هو نافر في علاقة الفطرة بهذه الحقائق. أما العقل فقد استطاعت هذه الحقائق أن تصل إلى ما لا يمكن للعقل الوصول إليه، وأن تربطه بها، ليسير معها في وئام وانسجام. هذا التوافق بين متطلبات الثقافة ومقتضيات العقل والفطرة يعدّ خاصية فريدة من خصائص الثقافة الإسلامية.

المطلب الأول: علاقة الفطرة بالدّين في تصوّر الثقافة الإسلامية

يظهر من قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٣٠). علاقة بين الدّين -الذي هو مادّة الوحي وموضوعه- وبين الفطرة. وللكشف عن هذه العلاقة يمكن القول: إنّ فطرة الإنسان لا تكذّب صاحبها، ولا تخدعه ولا تغشّه، فميلها إلى التديّن ميل طبيعي

صادق، وبهذا يُفسّر سلوك أصحاب الديانات الأخرى في التديّن، إنّها تعبر وتترجم عن مكنون الفطرة الإنسانية وشعورها وحاجتها إلى التديّن، لكنها عاجزة بنفسها عن الوصول إلى الأنموذج الحقّ في التديّن، لذلك لا بدّ لها من مصدر موجّه يتصف بالكمال المطلق، والعدل المطلق، والعلم المطلق. وقد كان هذا الدّين الحنيف هو آخر ما تشهده البشرية من نماذج التديّن الحقّ عبر توجيهات الوحي للنبيّ محمد ﷺ. وهو من هذه الناحية يلبّي كلّ متطلبات الفطرة الإنسانية. قال البقاعي:" والفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ، فلا بد من هاد ومرشد، ولا مرشد فوق كلام الله وأنبيائه"([١٥]) فالدين مرشد للفطرة وهاد لها.

ولأنّ مصدر هذا الدّين موصوف بتلك الأوصاف فإنّ الثقافة الإسلامية قد سارت مع توجيهاته وإرشاداته في انسجام كامل. ويصعب القول إنّ هناك نماذج أخرى من التديّن تلبي حاجات الفطرة عند أصحاب الثقافات الأخرى، لأنّ الفطرة ليست حاكمة ولا هادية، بل هي مهتدية بفعل ما تتلقّاه من توجيهات خارجية، ولأنّ كل هذه التوجيهات تفتقر إلى العلم المطلق، والكمال المطلق، والعدالة المطلقة، بات لازماً القول إنّ التديّن في الثقافة الإسلامية هو الأنموذج الوحيد الذي يلبي حاجة النفس من شغفها وشوقها إلى التعبّد والتديّن. فالدّين إذن، هو اللباس الذي تكتسي به الفطرة وتتزين ظاهراً وباطناً.

المطلب الثاني: من مظاهر انسجام الثقافة الإسلامية مع الفطرة

لعلّ أهم مظهر لهذا الانسجام الاعتراف بحقيقة الفطرة وطبيعتها، والتعامل معها على أساس حاجاتها المادية والمعنوية؛ فقد يفهم مما سبق بأنّ حاجة الفطرة متمثلة فقط في العبادة، كأنّه لا يوجد متطلبات ماديّة للفطرة، والواقع أنّ أحداً لا يستطيع أن يقصر متطلبات الفطرة على النواحي العبادية أو الروحية، فهناك متطلبات مادية ومعنوية للفطرة لا يمكن إنكارها، فحاجة الإنسان إلى المعرفة والعلم حاجة فطرية قد لبّاها الوحي حين جعل أقرب النّاس إلى الله وأشدّهم له خشية العلماء. قال تعلى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر:٢٨) وحاجة الإنسان إلى المأكل والملبس والمشرب والزّينة والطهر والنظافة حاجة فطرية يفترض فيه أن يلبيها دون إسراف ولا مخيلة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (البقرة: ١٦٨) وحبّه للمال حاجة فطرية لم يتنكر لها الوحي شريطة أن لا تكون غاية من الغايات، ويجب أن تبقى وسيلة يستعين بها على إعمار الكون وتحقيق العبودية لله على وجه الأرض.

كذلك فإنّ حاجة الإنسان إلى قضاء شهوته حاجة فطرية لها أبعادها النفسية والاقتصادية والاجتماعية. وهي من الضرورات الملحّة بالنسبة إلى الإنسان، وقد عمل الوحي على تلبيتها. لقد أنكر رسول الله ﷺ على النفر الثلاثة الذين أرادوا أن يقاوموا هذه الحاجات الفطرية في الإنسان، ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال:" جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ يسألون عن عبادة النبيّ، فلمّا أخبروا كأنّهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبيّ؟ قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. قال أحدهم: أمّا أنا فأنا أصلّي الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدّهر فلا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس منّي."[(١٦)] قال الصنعاني: وهو دليل على أن المشروع هو الاقتصاد في العبادات دون الانهماك والإضرار بالنفس وهجر المألوفات كلها، وأن هذه الملة المحمدية مبنية شريعتها على الاقتصاد والتسهيل والتيسير وعدم التعسير"([١٧]) فالنوم والأكل والشهوة حاجات فطرية، يُعدّ إنكارها مقاومة عنيفة للفطرة، وفيه مشقة وعسر كبيرين على الإنسان.

المطلب الثالث: من مظاهر انسجام الثقافة الإسلامية مع العقل

للعقل مكانة كبيرة في تصوّر الثقافة الإسلامية، فهو الأساس الذي تمّ بموجبه تكليف الإنسان، وصلح له خطاب الوحي، وهو ما استقل به الإنسان بالتميّز عن سائر المخلوقات. وبه أنيط مهمّة فهم هذا الخطاب الإلهي في علاقة مستمرّة لا تنقطع إلى قيام الساعة من حيث صلاحية هذا الخطاب إلى ذلك الوقت، ومن حيث واجب العقل في الاجتهاد والاستنباط. وهو ليس إلا أداة فاعلة في فهم الحق والدين والعمل به، يقول الغزالي: انه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العيّ والحصر؟ أو لا يعلم أنّ العقل قاصر وأنّ مجاله ضيق منحصر؟ هيهات قد خاب على القطع والبتات وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات.([١٨]) ومن مظاهر انسجام الثقافة الإسلامية معه:

١. احترامها العقل وقدراته والتعامل معه في ضوء تلك المعطيات، بل حافظت عليه من أن يغيب بالسّكر أو يغرق بالمجون، أو يتيه في السفاهات.

٢. إجابتها عن الأسئلة المحيّرة التي تشغله، حيث تلتقي حقائق الوحي مع متطلبات النفس في انسجام لا مثيل له، فماذا يمكن أن تقدّم فلسفات الأرض ومذاهبها وعقائدها للإنسان في الإجابة على ما يدور في النفس من أسئلة: من أنا؟ ولماذا أعيش؟ وماذا بعد الموت؟ تجد كل الإجابات التي تقدّمها هذه الفلسفات والمذاهب لا تلامس الفطرة، ولا تقنع العقل. أمّا الثقافة الإسلامية فقد استندت إلى إجابات شافية، فقامت على أساس أنّ للإنسان خالقاً موصوفاً بكل صفات الجمال والجلال والهيبة والكمال، وأنّ للحياة غاية تؤدّي إلى السعادة في الدنيا،

وأنّ الحساب والجزاء مصير يؤول إليه كل إنسان، كما أخبر سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ (النجم: ٣١). وفي هذا انسجام تامّ للثقافة الإسلامية مع الفطرة والعقل.

٣. تكليفه على قدر وسعه وإمكاناته، فقد أولت الثقافة الإسلامية العقل أهمية كبيرة، ومنحته سلطة -هي مظهر تكريم له - النظر في نصوص الوحي، وإعمال الذهن فيها مما يعرف بعملية الاجتهاد، لكي يستنبط من نصوصه ما يقيم حياته على منهاج الحقّ وهدايته، وهو بهذا التكليف يتصف بالعلمية والمنهجية، ولا ينبغي أن يتّبع ما ليس له به علم، كما أخبر سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء:٣٦) وعلى هذا الأساس فإنّه لا يوجد في نصوص الوحي ما لا يفهم معناه، أو ما يقف العقل عاجزاً أمامه، أو ما هو محرّم على العقل الخوض فيه باستثناء ما يتعلق بذات الله تبارك وتعالى، وشؤون الغيب وقضاياه، فصلاحيات العقل تنتهي عند أول عتبات عالم الغيب. ولنقل: إنّه ليس هناك دائرة بحثية مغلقة في وجه العقل من شؤون عالم الشهادة وقضاياه، فهو هنا حرّ طليق يسير إلى هذه القضايا بعلمية ومنهجية وموضوعية قد تحدّدت معالمها في نصوص الوحي نفسه.

٤. تنمية مواهبه وقدراته، حيث أمسك الوحي بيد العقل في ظلّ الثقافة الإسلامية، ووجهه الوجهة الآمنة السليمة في تنمية قدراته ومواهبه، فبسط له عالم الشهادة، ودعاه إلى النظر فيه، واستثمار ما أودع الله تعالى فيه، وعدّ تكليفه بذلك فرضاً وطاعة، بل أتاحت له الاطلاع على كل مفيد، والانصراف عن كل ضارّ غير مفيد كالشعوذة والخرافة والأسطورة.

المطلب الرابع: من آثار انسجام الثقافة الإسلامية مع الفطرة والعقل

١. توحيدها الكيان الإنساني لقد حرصت الثقافة الإسلامية على لمّ شمل الإنسان وعدم تمزيقه أو تشتيته، من حيث إنّ ما قامت عليه من حقائق وعقائد وقيم لا يمكن أن يكون نابياً أو نافراً في نظر العقل، فجمعت كيان الإنسان كلّه، فوحدت بين جسده وعقله وفطرته في خطاب واحد، فالإقرار بالخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فيه استقرار للعقل وطمأنينة، وليس في العقل ما يدفع هذا الإقرار أو يخالفه. واتصال الله تعالى بخلقه عن طريق الأنبياء والمرسلين ليس في العقل ما يدفعه. كذلك، لا يرى العقل في إثبات اليوم الآخر، وهو اليوم الأعظم للحساب والجزاء ما هو مستحيل، أو غير ممكن الوقوع، فإمكانية وقوع ذلك اليوم لا شكّ فيها في نظر العقل، وهو مما تعشقه الفطرة. وبهذا يتكامل الكيان الإنساني في ظلّ الثقافة الإسلامية.

٢. تنظيمها طريقة عمل العقل لقد نظمت الثقافة الإسلامية طريقة عمل العقل وفق منهج علمي رصين؛ فدعته إلى الربط بين الأسباب ومسبّباتها، وأنّ لكل شيء سبباً، وأنّ لكل حادث محدثاً، وعليه فالسببية مسلك رئيس في تنظيم عمل العقل، وعلى هذا تجري شؤون الحياة والكون والإنسان، قال عمر رضي الله عنه:" لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"([١٩]) وهذا مسلك منسجم مع احترام الثقافة الإسلامية للعقل، ولهذا وجدنا العقل لا يقبل الانصياع للخرافات والأوهام والأساطير والخيالات؛ لأنّ كل هذه الأمور تفتقر إلى الصلة بين الأسباب ومسبّباتها، ولذلك عملت الثقافة الإسلامية على تحرير العقل من هذه التّبعية للخرافات والخيالات، وعملت على إرشاده وأنارت له سبيل الحقّ، ولذلك كان ما تتميز به هذه الثقافة أنّها صاحبة فضل على العقل في الإرشاد والتوجيه، بينما خضعت الثقافات الأخرى لسلطان العقل خضوعاً تامّاً، وكان له عليها فضل كبير.

ومع أنّ ربط الأسباب بمسبّباتها سنّة إلهية جارية في نظام الخلق، والله تعالى هو واضع هذه السنن، فإنّ له سبحانه أن يخرق هذه السنن ويوقفها على

صورة لا تشعر بربط الأسباب بمسبّباتها، كما حدث في نار إبراهيم عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، وأن يقف البحر لموسى عليه السلام، وأن يجعل لعيسى عليه السلام القدرة على أن يتكلم في المهد أو أن يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص... كلّ تلك الآيات لم تعطل نظام السنن الإلهية، ولم تخرج الحياة الإنسانية عن نظامها وطبيعتها لخصوصية تلك الآيات، وخصوصية الأهداف التي حقّقتها من إثبات للنبوّة، وبيان للقدرة الإلهية المطلقة التي لا تقف عند حدود ما ألفه الناس في حياتهم ونظامهم، فالله تعالى هو الذي أجرى نظام السنن في الحياة، وهو الذي خرقه تأييداً لرسله وأنبيائه، ولإقامة الحجة على الخلق. والعقل كما يقبل هذا التفسير لنظام الخوارق والآيات، فإنّه يعمل حسب نظام السنن الإلهية في الأنفس والآفاق الذي استقرّ بعد ختم تلك الآيات بالقرآن الكريم الآية الكبرى والمعجزة العظمى.

٣. تحريرالعقل من التبعيّة والتقليد والخرافات، نبذت الثقافة الإسلامية مبدأ التقليد الأعمى للآباء والأجداد، أو الخضوع للعادات والتقاليد المنافية لمعطيات الوحي ونصوصه، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة: ١٧٠) أو أن ينساق وراء التقاليد والعادات الوافدة من الشرق أو الغرب، لأنّ اتّباعها فيه ازدراء بالعقل، وانتقاص من شأنه، بل فيه احتقار له، وهذا ينافي مبدأ تكريمه واحترامه. وبهذا تجعل الثقافة للعقل المسلم خصوصية واستقلالية، فكيف لا تنسجم معه وقد صاغته صياغة محكمة رصينة لا نظير لها في ثقافات الأرض كلها.

٤. نفيها مبدأ الصراع بين العقل والدّين، إنّ مبدأ الصراع الذي عاشته الثقافات الأخرى بين العقل والدّين عوّق سير الحياة وعقّد مشكلاتها، وانعكس ذلك كلّه على الإنسان وشتت شمله وكيانه، فعلى سبيل المثال مرّت الثقافة الغربية بمرحلة سيطر فيها العقل سيطرة تامة فأنتج الفلسفة، ثم سيطرت الكنيسة –بعد ذلك– في عصر الدين على مجريات الحياة، فحاربت العلم، واضطهدت العقل،

وحرمته من النظر في نصوص الكتب المقدّسة عندها، وعلقت أعواد المشانق للعلماء، ثم انتفض الغرب ضدّ كنيسته وعزلها عن الحياة عزلا كليا، فظهرت النظم العلمانية المشوبة بالإلحاد، ثم آلت هذه الثقافة إلى الخضوع لسلطان العلم المادي صاحب الكلمة الفصل في كلّ شيء (٢٠). إنّ هذه المراحل المتناقضة لم يجتمع فيها العقل مع الدّين، ولم يلتق فيها كذلك العلم مع الفلسفة، بينما التقى العلم مع الإيمان، والتقى العقل مع الدّين في ظل الثقافة الإسلامية في وئام كامل، وانسجام ليس له مثيل.

ولم يقف العقل يوماً في وجه الدّين في الثقافة الإسلامية، ولم يقف العلم لحظة معارضاً له؛ لأنّه في تصوّر هذه الثقافة يتآخى العلم مع الدّين لفهم فعل الله -عزّ وجلّ- في هذا الوجود، مع كلامه تعالى في نصوص الكتاب الكريم؛ فالكون أثر لفعله، والقرآن وصف لهذا الفعل، فهما إذن كتابان لا يصح فهم أحدهما إلا في ضوء الآخر.

المبحث الثالث

اتصافها بالشمول

الشمول خاصّية فريدة من خصائص الثقافة الإسلامية، ونعني به وفاء هذه الثقافة بكل متطلبات الحياة الإنسانية على مختلف الصُعُد، وإحاطتها بكلّ احتياجات الإنسان المادية والمعنوية. فليس هناك جانب من جوانب الحياة الإنسانية وقفت فيه الثقافة الإسلامية صامتة حائرة دون أن تقول كلمتها، أو أن توجّه سلوك الإنسان فيه للتي هي أقوم. لقد وضعت الثقافة الإسلامية كل الأسس المعيارية الضابطة لهذه المتطلبات. ورسمت السلوك الصحيح للوصول إلى كل هدف سام، ومقصد شريف، وغاية نبيلة.

إنّها ثقافة تستند إلى الوحي الذي أنزل الله تعالى فيه:"مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ" (الأنعام:٣٨). وأنزل فيه:"وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ" (النحل: ٨٩) ممّا تتطلبه حياة الإنسان من أسس العقيدة والشريعة، وأصول الحقّ والعدالة والأخلاق؛ لإقامة نظام الحياة على هداية من هذه الأسس والأصول الشاملة المتّصفة بالحقّ، والمطابقة للواقع. لقد أسست الثقافة الإسلامية لمنظومات من العلاقات تضبط أسس التعامل مع كلّ مظاهر الوجود.

المطلب الأول: من مظاهر الشمول في الثقافة الإسلامية

١. بناؤها منظومات شاملة من العلاقات المنضبطة، لم تقتصر العلاقات التي بنتها الثقافة الإسلامية على حدود التعامل مع الآخر كما في الثقافات الأخرى، ولكنها تجاوزت ذلك، ووضعت أسس التعامل مع:

أ- الخالق سبحانه وما له من حقوق، وطبيعة العلاقة التي تربط العباد به.

ب- الإنسان: أباً وأمّاً وزوجاً وأخاً وأختاً وابناً وبنتاً وجاراً وصديقاً ومسلماً ومسلمة، وعدوّاً وكافراً وأسيراً وكتابياً وذمّيّاً،... وما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات.

ج - النفس والذات، وما لها على الإنسان من حقّ، وما عليها من واجب.

د - الكون وما فيه من شمس وقمر، ونجوم وكواكب، وأرض وسماء، وبحار وجبال، وطير ودوابّ ...

وإذا تساءلنا عن أسس العلاقة التي تضعها الثقافات الأخرى في التعامل مع الله -عزّ وجلّ- والكون ومع الذات والآخر، سنجد أنّها تعاني من إفلاس كبير في القدرة على وضع أسس صحيحة في التعامل مع هذا الوجود، بل إنّها لم ترق لتصل إلى شيء من الإحاطة بمنهجية منضبطة في ذلك التعامل، فهي تتخبط في عشواء، وتهبط في كل مهواة من الأهواء، فنظرتها إلى الكون إما نظرة اعتزال وانزواء، وازدراء واحتقار، أو نظرة تحدّ وصراع، وعتوّ وكبرياء. كذلك، فإنّ هذه

الثقافات تفتقر في نظرتها إلى الإنسان إلى منهج شمولي في التعامل، فضلا عن نظرتها القاصرة إلى الإنسان نفسه، فهو إمّا مادّة خالصة، وإمّا روح خاملة. كذلك في نظرتها إلى الخالق، فهو إمّا لا وجود له، وإما هو خالق صنعه الإنسان بخياله، وكيّفه بالطريقة التي يريد، بل جسّده بالطريقة التي يريد، وخلع عليه من الأوصاف ما يريد، ومكّنه من القوى التي يريد.

لقد عاب القرآن الكريم على الماديين الذين يقفون في تعاملهم مع الوجود عند السطحيات وعند ظواهر الأشياء غاضّين الطرف عن الحقائق الجوهرية الكبرى ذات الصلة الشديدة بالإنسان، لقد وصفهم الله تعالى بقوله:" يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ"(الروم:٧) فمناهجهم قاصرة عند حدود التعامل مع ماديات هذه الحياة. ومنتهى آمالهم وأحلامهم لا يتجاوز هذه الحياة، أمّا الحياة الآخرة فليست من حسبانهم في شيء، وتلك هي مأساة هذه الثقافات التي قزّمت الإنسان وبترت طموحاته وأحلامه، واختصرت مراحل حياته إلى المرحلة الدنيا التي يعاني فيها الإنسان ويكابد مشاقّ الحياة وهمومها.

٢. عدم وقوفها عند حدود الظاهر في علاقاتها، لا تقف الثقافة الإسلامية في شمولها عند حدود الظاهر، ولا تنشئ علاقاتها على أساس من السطحية، سواء في علاقتها مع الله الخالق، أو في علاقتها مع المنتمين إلى الثقافة الإسلامية. ولو تساءلنا -مثلاً- عن طبيعة العلاقة التي تحكم المؤمن بأخيه المؤمن، لوجدنا السموّ الروحي يهيمن على هذه العلاقة، حتى يصل إلى أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه وهو من دلائل صدق الإيمان، فقد أخبر النبيّ ﷺ عن ذلك بقوله: لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه"[٢١] بل تجاوزت هذا الحدّ لتصل إلى أن يحبّ الإنسان لأخيه المؤمن أكثر مما يحبّ لنفسه، لقوله سبحانه:" وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ" (الحشر:٩). فالإيثار مصطلح تتكئ الثقافة الإسلامية عليه في توثيق عرى الرابطة الأخوية بين الأفراد المنتمين إليها، ولن تجد لهذا المصطلح مثيلاً في الثقافات الأخرى، بل إنّ المدح والثناء لهؤلاء ليس

لأنّهم أحبّوا لغيرهم أكثر مما يحبّون لأنفسهم فحسب، ولكنهم يحبّون لغيرهم أكثر مما يحبّون لأنفسهم في الوقت الذي تظهر فيه حاجتهم وعوزهم وفاقتهم كذلك، فهل لهذا الشمول والعمق من مثيل في توثيق الروابط بين المنتمين إلى الثقافات الأخرى؟

٣. نفاذها إلى أدّق تفاصيل الحياة الإنسانية؛ لأنّها مستندة إلى نصوص الوحي، فإنّها لم تترك فجوةً أو فراغاً حتى في أدّق تفاصيل الحياة الإنسانية، فلو تساءلنا -مثلاً- عن ميراث الابن مع وجود أختين وأم، فما عسى الثقافات الأخرى أن تجيب عن ذلك؟ لا يمكن لثقافة مهما كانت إجابتها أن تحقّق العدالة والمساواة، كما لا يمكنها أن تنظر إلى الورثة نظرة شاملة، خاصّة في ظل غياب مفهوم الأسرة والرابطة الأسرية في الثقافة الغربية على وجه الخصوص. كذلك، على أيّ نمط من العلاقات يمكن أن تنظم علاقة الإنسان بالإنسان، وإلى أيّ حدّ، وما ضوابطها؟ إنّ المصالح هي الرابط الأهم في هذه العلاقات، وبمعنى آخر، فإنّها لا تتجاوز العلاقة المادية.

٤. شمول نظرتها إلى العبادة، ليس هناك من حركة أو سكنة للإنسان إن ابتغى بها وجه الله -عزّ وجلّ- إلا هي عبادة يثاب عليها، فالعمل عبادة، وتبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، والتعاون في إقامة حدود شرع الله عبادة، وحبّ المؤمنين عبادة، وإغاثة الملهوف عبادة، ونصرة المظلوم عبادة، ومن العبادة كذلك:

- إماطة الأذى عن الطريق، لقوله ﷺ: "لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنّة في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس."[٢٢]

- الإحسان إلى البهائم عبادة، يقول: "إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة. وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبح. وليُحدّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته."[٢٣] إنّ هذا الحديث يغرس في نفس الإنسان حسّاً جمالياً، وبعداً إنسانياً كبيراً لدى المنتمي إلى الثقافة الإسلامية؛ لأنّها تفرض عليه أن يحسن إلى كلّ مخلوق، حتى البهائم لها نصيب كبير من هذا الإحسان.

- بل إنّ ذروة الشمول في العبادة تصل إلى حدّ أن تدخل امرأة النار في هرّة حبستها، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض."[٢٤]
- ويغفر الله تعالى لرجل في كلب سقاه، ففي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال: "بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فشرب، ثمّ خرج. فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منّي. فنزل البئر فملأ خفّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب فشكر اللهُ له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله ! وإنّ لنا في البهائم لأجراً ؟ فقال: في كلّ كبد رطبة أجر."[٢٥] قال ابن عبد البر:" دليل على أن الإساءة إلى البهائم والحيوان لا يجوز ولا يحل وأن فاعلها يأثم فيها لأن النص إذا ورد بأن في الإحسان إليهن أجراً وحسنات قام الدليل بأن في الإساءة إليهن وزرا وذنوبا"([٢٦]) فالأجر والثواب على مثل هذه الأعمال يؤكد المعنى الشامل للعبادة في مفهوم الثقافة الإسلامية. وليس للعبادة مكان خاصّ يمكن أن تنزوي فيه عن الحياة.

إنّ أهم ما يميز العبادة أنّها شاملة لمتطلبات الروح والمادة في كيان الإنسان.

المطلب الثاني: من آثار خاصيّة الشمول في الثقافة الإسلامية

١. استغناؤها عن الثقافات الأخرى وقيامها وحدها، إنّ هذه الثقافة تعدّ مرجعية متكاملة لا يعتقد أنّها من هذه الناحية بحاجة إلى أن تستورد ثقافة الأجنبي التي هي منتج بشري يعتريه الخلل والقصور في حين أن الثقافة الإسلامية مأمورة بالتميّز والاستقلالية والشموخ. ولأنّها ثقافة ألّفت بين النّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، فقد تجاوزت القصور الذي اعترى الثقافات الأخرى من حيث خطابها الشامل المتوجّه إلى بني الإنسان كافّة دون تمييز بينهم. هذا الاستغناء ثابت في أصول الدين وثوابته، وما يرجع إلى القيم والمعايير الضابطة للفكر والسلوك، أما ما يرجع إلى اقتباس الوسائل المادية أو المعنوية فلا مانع من اقتباسها بما يتوافق مع روح الشريعة.

٢. قدرتها على رصد حركة سير الأمّة، إنّ الثقافة الإسلامية - لشموليتها وآفاقها الواسعة - قادرة على أن ترقب وترصد حركة سير الأمّة والمجتمع. ويمكنها استشراف المستقبل. ويمكنها أن تتنبأ متى يمكن أن تكون قويّة، ومتى يمكن أن تكون ضعيفة. وبإمكانها أن تتنبأ -حسب السنن الإلهية - متى تقوى حضارتها، ومتى تضعف. فقد قال رسول الله ﷺ :" إنّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها. وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأصفر. وإنّي سألت ربّي لأمّتي أن لا يهلكها بسنة عامّة، و أن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإنّ ربّي قال: يا محمّد ! إنّي إذا قضيت قضاء فإنّه لا يردّ. وإنّي أعطيتك لأمّتك أن لا أهلكهم بسنة عامّة. وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم. يستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً"(٢٧) والمقصود أن الأرض جمعت لرسول الله فرأى مشارقها ومغاربها، ثم هي تفتح لهذه الأمة، حتى يصل ملك أمته إلى كل أجزائها.(٢٨) وهذا يعني أنّها لا تعيش للحظتها أو ليومها، ونظرتها غير قاصرة على الماضي أو الحاضر، إنّها قادرة على أن تنظر إلى الغيب والمستقبل من ستر رقيق على حسب سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق. وتنطلق إلى الحياة من قوله تعالى:" إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ" (الرعد:١١).

٣. دفعها إلى التكافل والتعاون في استثمار الكون. من آثار شمولها خاصّة في العبادة أنّها تبعث الجهود نحو التعاون، حيث تجعل للعمل الجماعي أهمية كبرى بوصفه دافعاً إلى التكافل، ففي قوله "وتعاونوا"، "قاتلوا"، "جاهدوا"، "وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة" دلالة على التعاون والتضامن الذي تنشئه بين الأفراد لفعل الخير، ودفع الشرّ، فمثلاً إنّ الأمّة مسؤولة عن إقامة الحدود بوصفها عبادة أولاً، وبوصفها سبباً من أسباب البقاء ثانياً.

كذلك، فإنّها تدفع إلى إصلاح الكون والحياة بدافع العبادة، فإذا كان إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فكيف بشقّ الطرق وتعبيدها وتذليلها للسالكين ! وكيف بإنشاء المصانع والمزارع وتوفير المسكن المناسب لكل إنسان!

المبحث الرابع

اتصافها بالتوازن

نعني بكون التوازن خاصية من خصائص الثقافة الإسلامية وقوفها عند حدّ الاعتدال في تعاملها مع الخالق سبحانه، وفي نظرتها إلى الإنسان والكون والحياة. وهو أشبه ما يكون بكفتي ميزان تقيمه الثقافة الإسلامية فيما تستند إليه من تصوّرات ومبادئ وشعائر وشرائع في نفوس المنتمين إليها وفي سلوكهم، ويتوضّح هذا من خلال مظاهر التوازن الكثيرة.

المطلب الأول: من مظاهر التوازن في الثقافة الإسلامية:

١- في تعاملها مع الله سبحانه الذي له حقّ على العباد، إذ هو الذي خلقهم في أحسن تقويم، ورزقهم من الطيّبات، وجعل لهم الأرض مهداً، وسخر لهم فيها كل شيء،...، وحقّه سبحانه أن يعبدوه وأن لا يشركوا به شيئا. وحقّهم عليه أن لا يعذّبهم، ففي الحديث قوله: يا معاذ أتدري ما حقّ الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يُعبد الله ولا يشرك به شيء. قال: أتدري ما حقّهم عليه إذا فعلوا ذلك؟ فقال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذّبهم."[٢٩] فجعل العلاقة بين العبد وخالقه في إطار الحقوق المتقابلة فيه توازن كبير؛ لما يشعر به الإنسان بأنّ عمله لن يضيع سدى، فيبقى في علاقته مع الله -عزّ وجلّ- بين الرجاء والخوف، لقوله تعالى:" نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ" (الحجر: ٤٩، ٥٠). وهو توازن في التعريف به سبحانه وبتعامله مع العبد، وليس هناك - كما في الثقافات الأخرى -إله مستقل بالرحمة، وإله مستقل بالعذاب. هذا التوازن في الجانب الاعتقادي هو أساس انطلاق الإنسان إلى تحقيق مفهوم العبودية الحقّ لله تعالى، وتحقيق مفهوم الاستخلاف في الأرض.

٢. في نظرتها إلى الإنسان وفي تعاملها معه، فهو مخلوق مكرّم، بل هو أسمى المخلوقات كلها. خلق من مادّة وروح، وخلق لحكمة وغاية، وكلّف على

قدر وسعه وطاقته من الأعمال... لقد وازنت الثقافة الإسلامية بين مطالب روح الإنسان وجسده، فهو ينمّي ويزكي روحه بالقرب من الله تعالى بكل عمل صالح، وهو كذلك يلبّي مطالب جسده لا يتنكر لحق واحد منهما، والإنسان يبتغي الدّار الآخرة من حيث ابتغاؤه الحياة الدنيا التي لا ينسى نصيبه منها، كما أخبر سبحانه:" وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"(القصص: ٧٧).

إنّ الموازنة بين المقدّمة والنتيجة مطلب ضروري لاستقامة الحياة الدنيا التي هي مقدّمة للدّار الآخرة. وهذه الدّار هي نتيجة مؤكدة لا ريب فيها لما يجنيه الإنسان في دنياه.

وينبغي لمطالب الجسد والروح أن تقف عند حدّ الاعتدال، فالاعتدال في تلبية حاجة الجسد من الأكل مطلب ضروري، لقوله ﷺ:" ما من وعاء ملأ ابن آدم شراً من بطن، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه."[٣٠] "وأكلات جمع "أُكلة" بالضم، وهي اللقمة. أي: يكفيه هذا القدر في سدّ الرمق وإمساك القوّة."[٣١] إنّها حسبة متوازنة، تقي الإنسان آفات وأمراض كثيرة، وإذا كان هذا التوازن ضرورياً لبدن الإنسان أفلا يكون ضرورياً له في بناء تفكير متوازن، واقتصاد متوازن، وتربية متوازنة؟ الجواب: إنّ التوازن من ضرورات الحياة الإنسانية.

والاعتدال في تلبية حاجة الروح من المعرفة والعبادة مطلب ضروري، وللتمثيل على ذلك نقول: إنّه لا ينبغي الإسراف في الوعظ لصرف الناس إلى الآخرة وتذكيرهم بها بكرة وعشياً، فقد كان عبد الله بن مسعود يذكّر النّاس في كلّ خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنّك ذكرتنا كلّ يوم. قال: أما إنّه يمنعني من ذلك أنّي أكره أن أملّكم، وإنّي أتخولّكم بالموعظة كما كان النبيّ ﷺ يتخوّلنا بها مخافة السّآمة علينا."[٣٢] وفي الحديث كذلك قوله ﷺ:" لا تملّ الناس هذا القرآن."[٣٣]، بأن لا تسرف في وعظ الناس به، فتجعلهم يسأمون.

وفي قوله ﷺ حين دخل المسجد فوجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين:" ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا لزينب، فإذا فترت تعلّقت. فقال النبيّ ﷺ لا ! حلّوه، ليصلّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد."(٣٤)

وفي حديث آخر يقول ﷺ :" عليكم ما تطيقون من الأعمال، فإنّ الله لا يملّ حتى تملّوا."(٣٥)

وفي الحديث عن حنظلة قال: كنّا عند رسول الله، فوعظنا وذكر النّار، قال: ثمّ جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان، ولاعبت المرأة. قال: فخرجت فلقيت أبا بكر. فذكرت ذلك له. فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر. فلقينا رسول الله فقلت: يا رسول الله ! نافق حنظلة. فقال: مه، فحدّثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل. فقال: يا حنظلة ! ساعة وساعة. ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذّكر، لصافحتكم الملائكة، حتّى تسلّم عليكم في الطرق."(٣٦) فقوله: ساعة وساعة، أي: إنّ القلوب تملّ، وإبقاؤها على وضع واحد يحدث السّآمة في القلب حتى في أكثر الأمور قربة إلى الله وطاعة وصلاحاً.

كل هذه الأحاديث وغيرها تؤكد وجهة الثقافة الإسلامية في توازنها واعتدالها حتى في التدّين؛ وذلك أنّ انعدام التوازن يترتب عليه إخلال بمهامّ الإنسان ونشاطه وواجباته. ولعلّ في قوله ﷺ: "إنّ هذا الدّين متين فأوغلوا فيه برفق."(٣٧) وقوله ﷺ: "إنّ الدّين يسر، ولن يشادّ الدّين أحد إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا... الحديث."(٣٨) ما يؤكد هذه الخاصية، فالاعتدال في الفهم والتطبيق أمر يؤكد تفوّق هذه الثقافة وتميزها عن غيرها. في حين أنّ متطلبات التديّن في الثقافات الأخرى تكتفي من الشخص بأن يذهب إلى الكنيسة أو المعبد مرّة في كل أسبوع، ويكون قد غفر له كل ما ارتكبه من آثام وشرور، أو قد يتكلف الإساءة إلى الجسد بتعذيبه والخلاص منه بوصفه معوّقا لسموّ الإنسان الروحي.

٣. في تعاملها مع الآخر تؤسس الثقافة الإسلامية مبدأ التعامل بين النّاس على أساس حفظ الحقوق وأداء الواجبات، وهو تعامل مبنيّ على المساواة

والعدالة. فلا فضل للون على لون، ولا لجنس على جنس، ولا لعرق على عرق، النّاس لآدم، وآدم من تراب. ومن شأن سيادة هذا المبدأ في حياة الناس التعاون والتراحم. أقول حتى الاعتدال في حبّ الناس وبغضهم أمر تقرر في الثقافة الإسلامية لقوله ﷺ:"أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما.([٣٩])

٤. تقيم الثقافة الإسلامية مبادئ متوازنة ينظر فيها إلى حقّ الفرد في إطار حقّ الجماعة، وينظر فيها إلى المصلحة الخاصّة في إطار المصلحة العامّة، فلا تطغى مصلحة على أخرى. ولا تسلب الجماعة الفرد خصوصيته، ولا يبتلع الفرد حقوق الجماعة. ومن هنا ورد قوله ﷺ: "المسلمون شركاء في ثلاثة: في الكلأ، والماء والنار."([٤٠]) لأنّ احتكار شيء منها يؤدّي إلى إيقاع الجماعة في ضرر كبير.

٥. وفي مجال الإنفاق تقيم موازنة بين الدّخل والإنفاق، أو بين الصادر والوارد، لتكون الموازنة والاعتدال بينهما أساس عملية الإنفاق، قال تعالى:" وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا" (الفرقان:٦٧). فلا إسراف ولا تقتير، أي: التقليل من الإنفاق على حساب حاجة أو ضرورة. ويشير إلى هذا التوازن قوله تعالى:" وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" (الإسراء: ٢٩).

٦. ووازن بين الجهد المبذول والأجر المادي على هذا الجهد، فحرّم الربا لأنّه مال لا يقابله جهد. والمال وحده لا يولّد مالاً بعيداً عن كل جهد وعمل وإنتاج، " ولذلك فإنّ مجرد تقرير ربح مضمون لربّ المال، دون أن يكون في مقابل جهد أو عمل أو ربح للمقترض فيه محاباة للمال، وإيثار له على العمل. وإنّ الضرر الذي ينجم عن ذلك ليس من نوع الأضرار الأدبية، أو الأغلاط النظرية فحسب - يعني قلب موازين الأشياء بوضع القيم الإنسانية موضعاً نازلاً وتفضيل القيم المادية عليها - بل إنّه يمس بناء الجماعة مسّاً عنيفاً عميقاً؛ ذلك أننا بهذه

الوسيلة نزيد في توسيع المسافة، وتعميق الهوّة بين طبقات الشعب بتحويل مجرى الثروة وتوجيهها إلى جهة واحدة معينة، بدلا من أن نشجع المساواة في الفرص بين الجميع، وأن نقارب بين مستوى الأمة، حتى يمون أميل إلى التجانس، وأقرب إلى الوحدة.[٤١] بين طبقات المجتمع.

وهكذا نجد موازنة بين نظامين اثنين لا ثالث لهما، فإما نظام يتضامن فيه ربّ المال والعامل في الربح والخسر، وإما نظام لا يشترك فيه معه في ربح ولا خسر، ولا ثالث لهما إلا أن يكون تلفيقاً من الجور والمحاباة.[٤٢]

٧. في تعاملها مع الكون تقيم الثقافة الإسلامية توازنا في طلب العلم والمعرفة بين علوم الوحي وبين ما يمكن أن يصل إليه الإنسان -بدافع توجيه الوحي- من علوم الكون. فالأمّة معنية باكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، ومعنية بالاستفادة من سنن الله التسخيرية، ومعنية كذلك بالسير في الأرض والوقوف على حقائق نواميس الكون وما أبدعته يد القدرة الإلهية. لكن طائفة من الأمّة معنية بالاختصاص بعلوم الوحي والتفقّه في الديّن؛ لتعليم النّاس وإبلاغهم رسالة الهداية الإلهية، ولتعليمهم كذلك كيفية قراءة كتاب الكون في ضوء قراءة كتاب الوحي، ولقد أخبر القرآن عن هذه الطائفة بقوله تعالى:" وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" (التوبة: ١٢٢). وكلّ علم متحصّل من هذين الكتابين يوصل إلى هداية الله ومعرفته وخشيته:"إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء" (فاطر: ٢٨)، فالتوازن في طلب العلم والمعرفة من حيث الشمول والتنوّع ضروري لصلاح الحياة الإنسانية في تصوّر الثقافة الإسلامية.

إنّ التوازن في الثقافة الإسلامية منسجم ومتناغم مع الانسجام في النظام الكوني كله، فليس في الكون اختلال يبعث على عدم الاستقرار، يقول سبحانه:" الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئا وَهُوَ حَسِيرٌ"

(الملك: ٣-٤). كذلك ترى توازن الكون واستقراره في قوله تعالى: " لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (يس: ٤٠). وفي قوله: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ" (الحجّ:٦٥). ومن شأن هذا التوازن أن ينعكس على الإنسان بالطمأنينة والاستقرار.

المطلب الثاني: من آثار خاصية التوازن

إن للتوازن في الثقافة الإسلامية آثاراً في حياة الإنسان منها:

١. ينشئ لدى المنتمي إلى الثقافة الإسلامية استقامةً واعتدالاً في منهج التفكير في إطار تعامله مع خالقه، ومع نفسه ومع الآخرين ومع كل شيء في الكون، كما يبعث على الاستقامة في السلوك حيث إنّ ما كلّف به واقع ضمن قدرته وإمكاناته. والنتيجة من هذا كله إيجاد الإنسان المتوازن المعتدل. قال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ ﴾ (هود:١١٢)

٢. يبعث على الاستقرار الذي يرمي بظلاله على الحياة الإنسانية، ويبعث السكينة والطمأنينة في الحياة، فالإنسان عقل وجسد، أو هو مادّة وروح. والإنسان الذي تقيمه وتنشئه الثقافة الإسلامية إنسان متوازن، والحياة التي تقيمها حياة متوازنة، والحضارة التي تشيّدها حضارة متوازنة، والعلاقات التي تقيمها مع الله تعالى والكون والإنسان والنفس علاقات متوازنة، ليس هناك اختلالات في بناء هذه الثقافة ونسيجها.

٣. ينشئ الأمّة الوسط، كما في قوله تعالى:" وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" (البقرة: ١٤٣) قال البيضاوي: أي خياراً أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل، وهو في الأصل اسم

للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط.(٤٣) وهي وسطية التصور والاعتقاد، فلا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها. ووسطية في التفكير والشعور فلا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة. ولا تتبع كذلك كل ناعق، وتقلد تقليد القردة المضحك، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول؛ ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب؛ وشعارها الدائم الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين. ووسطية في التنظيم والتنسيق فلا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب. ووسطية في الارتباطات والعلاقات فلا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، إنّما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتحقق شخصية الفرد وكيانه بما لا يضرّ بمصلحة الجماعة. ووسطية في المكان والزمان فما تزال هذه الأمة بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً، وتشهد على الناس جميعاً.

وتنهي عهد طفولة البشرية من قبلها؛ وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها. وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها؛ وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى؛ وتزواج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلي المستمر في النماء؛ وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.(٤٤)

والوسطية التي من معانيها الاعتدال والخيريّة، تهدف إلى غاية سامية تتمثل في الشهادة على الأمم وتقويم انحرافاتها، وردّها إلى جادّة الحقّ والصواب. ولتكون الأمّة المسلمة نفسها المعيار الذي تقيس به الأمم الأخرى انضباطها واعتدالها واستقامتها في الحياة.

المبحث الخامس

ثقافة إيجابية

الإيجاب ضد السلب، والإيجابية خاصية لا تقل في أهميتها عن الخصائص الأخرى، وكونها إيجابية يعني أنّها تتعامل مع الوجود على نحو فاعل قابل للتأثير والتأثر، فهي لا تتّخذ أي موقف سلبي تجاه أي قضية مهما بلغت خطورتها. والإيجابية -كذلك- إثبات للذات وفاعليتها في صناعة الحدث، والتكيّف مع الأحوال والوقائع المتغيّرة، بينما السلبية إنكار للذات وفاعليتها، وعجزها عن التكيف مع الواقع؛ وكل ثقافة سلبية مهدّدة بالفناء والزوال. ولذلك، فإنّ كلمات: لا أعرف، لا أدري، لا أعلم، لا أستطيع، لا أقدر،...، ليست في قاموس الثقافة الإسلامية إزاء كل قولّ أو فعل نافع، فالذي لا يعرف يتعرّف، والذي لا يعلم يتعلّم، والذي لا يقدر يحاول، والذي لا يستطيع يُقدِم ويجرّب!

وعلى هذا فالإيجابية ليست مجرّد تنظير في العقيدة والفكر أو في السلوك والأخلاق، ولكنها حقيقة واقعة تربط القول بالفعل، وتربط الإيمان بالعمل. يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢-٣).

لقد انتقد القرآن الكريم أهل الكتاب من اليهود الذين حوّلوا الطابع الإيجابي للعقائد والشرائع عندهم إلى السلبية بجعلها مسائل نظرية، لا قيمة لها في واقع الحياة الإنسانية. يقول سبحانه فيهم: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (البقرة:٤٤). وقوله تعالى فيهم:﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ (الجمعة:٥). ولذلك حرصت الثقافة الإسلامية على أن تجعل من الإيمان والعلم والعمل مؤهلات تأذن للإنسان أن يرقى لتحقيق غايات وجوده في الحياة من عبودية الله وعمارة الأرض والخلافة فيها. إنّ بناء الشخصية على هذا النحو هو

بناء إيجابي فاعل، فإذا طرأ على هذه الشخصية تغيّر بالكفر، أو بالجهل، أو بالكسل والخمول على حدّ سواء، فإنّ خطراً حقيقياً سيهدّد هذه الشخصية بالزوال أو الاضمحلال، وسيهدّد الأمّة المسلمة تبعا لذلك.

المطلب الأول: من مظاهر إيجابية الثقافة الإسلامية

١. إنّ الإيجابية في الثقافة الإسلامية تظهر في تعاملها مع الله الخالق جلّ جلاله، فعلاقة العبد بربّه تستند إلى قوله تعالى: ﴿يحبّهم ويحبّونه﴾ (المائدة:٥٤)، وتستند إلى قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ (البيّنة:٨). وقوله:"قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (آل عمران:٣١). وتظهر كذلك في قوله: ﴿إنّ الله يحب المقسطين﴾ (الممتحنة: ٨). وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ الذي يقاتلون في سبيله صفّا كإنّهم بنيان مرصوص﴾ (الصف:٤). وقوله: ﴿إنّ الله يحبّ المتقين﴾ (التوبة: ٤، ٧). وتظهر في: ﴿إنّه لا يحبّ الظالمين﴾ (الشورى: ٤٠).: ﴿إنّ الله لا يحبّ المفسدين﴾ (القصص:٧٧).: " إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ" (الحج:٣٨).

وهكذا في آيات كثيرة تجد أنّ العلاقة مع الله لا تأخذ إلا طابعاً عملياً، فلأجل أعمال صالحة أحبّ الله فاعليها وقربهم منه منزلة، لتكون أعمالهم أساساً ومعياراً لمن يريد الزّلفى إلى الله تعالى. ولأجل أعمال سيئة أبغض الله فاعليها وأبعدهم عن مواطن محبّته؛ لتكون أعمالهم وبالا عليهم، فيحذر العاقل من تلك الأعمال. فحبّ الله تعالى دعوى لا يصدّقها إلا العمل الصالح الذي تنعكس آثاره على الفرد والأمّة. فحتى يحبّك الله لا بدّ أن تتقدّم بعمل صالح ينفع الأمّة وينفع الفرد، لا بدّ أن تدفع الزكاة والصدقة لأخيك المسلم حتى يحبّك الله تعالى ويرضى عنك، فهي علاقة إيجاب لا سلب.

٢. سيادة نظرة من التفاؤل تحكم تصوّر المسلم إزاء كل ما يواجهه من أحداث وابتلاءات، فالشرّ في تصوّر المسلم شيء نسبي، وليس في الحياة ما

يمكن أن يسمى خير محض أو شرّ محض. وقد ذكر العلماء أنّ الخير المحض والشرّ المحض لا يكون إلا في الآخرة؛ والخير كل الخير بخلود أهل الجنّة في الجنّة، والشرّ كل الشرّ بخلود أهل النّار في النّار. فالقتال -فيما يبدو- شرّ؛ لأنّ فيه مظنّة الموت، لكنّ الله يبيّن إيجابية القتال بقوله:" كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٢١٦).

وبناء على ذلك، ترتكز نظرة المسلم إلى ما يمكن أن يسمّى قبحاً أو شرّاً "فوجود الشيطان -مثلاً- لما كان سبباً لتحريك الهمم إلى رقيّ الإنسان والبشرية، وإلى التسابق والمجاهدة كان جميلا من هذه الناحية. كذلك وجود جهنم تتطلبه الرحمة والعدالة والحكمة؛ لأنّ إنزال عقاب بظالم هتك حرمات كثير من الأبرياء هو رحمة بهم، ووجودها ضروري كذلك لكونها باباً يعرف العبد منه لذائذ الجنّة، وتأخذ الثأر ممن ينتهك حقوق الآخرين."[٤٥]

وهكذا نجد المسلم أمام المصائب والأحزان يرقب الأمل وينتظر الأجر بصبر وثبات وعزيمة، لا يستسلم لتلك المصائب، ولا تقوده إلى اليأس، وتأكيدا لهذه الحقيقة الإيجابية، يقول ﷺ: "ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا سقم، ولا حزن، حتى الهمّ يهمّه، إلا كفّر به من سيئاته."[٤٦]

٣- إيجابية النظرة إلى الموت، إنّ الموت الذي تنظر إليه فلسفات الأرض وأديانها على أنّه زوال وفناء، وفراق وعدم، هو باب القدوم إلى الله سبحانه، وباب لقاء الأحبّة محمّد وصحبه. وهو باب وصال لالتقاء الأحبّة والخلاّن الراحلين إلى العالم الآخر، وهو وسيلة للدّخول في رحاب المقام الأبدي للسعادة الخالدة، وهو دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا إلى بساتين الجنّة وحدائقها، وهو فرصة تسلم الأجرة التي تغدق سخية من خزينة فضل الخالق الرحيم.[٤٧]

٤. قدرتها في التأثير في الواقع، إنّ إيجابية التصوّرات التي تقوم عليها الثقافة الإسلامية تتمثّل في تفاعلها مع الواقع والتأثير فيه تأثيراً إيجابياً، وتظهر ثمار

هذه الإيجابية وتتجلى آثارها في سلوك الفرد والأمّة، ولا تنزوي في صوامع أو مساجد أو زوايا، ولا تبقى مجرد اعتقادات نظرية لا تأبه لشؤون الحياة وقضايا السّاعة وتحديات العصر. ولا تنطوي على نفسها وتجعل التديّن مسألة شخصية. وبعبارة أخرى: إنّ إيجابية الثقافة الإسلامية تأبى أن تجعلها تعيش على هامش الحياة كأنّها خشب مسنّدة.

فعلى صعيد العلاقات الاجتماعية -مثلاً- تظهر الإيجابية باستقلالها وتميزها، فقد قال النبيّ ﷺ:" لا تكونوا إمّعة تقولون إن أحسن الناس أحسنّا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن النّاس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"[٤٨]؛ والإمّعة الذي يَتْبَع كلَّ ناعقٍ ويقول لكل أحد أنا معك ؛ لأنه لا رَأْي له يرجع إليه.[٤٩]

إنّ الثقافة الإسلامية ترفض التقليد الأعمى، وتأبى أن تعامل النّاس كما يعاملها النّاس، بل تعامل النّاس على أساس من البرّ والإحسان تأليفا للقلوب، ورصّا للصفوف، ونبذا للشقاق والتنازع، فهي إيجابية تغرس أسس الفضيلة والخير والمعروف بين النّاس، إنّه تأسيس للقدوة والأسوة الحسنة بينهم.

كذلك، لا ينبغي للفرد اعتزال النّاس خوفاً من أذاهم؛ لأنّ مخالطتهم بهدف إصلاحهم مطلب ضروري تسعى الثقافة الإسلامية إلى تحقيقه. وممّا يؤكد هذه الحقيقة قوله ﷺ:" المؤمن الذي يخالط النّاس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط النّاس ولا يصبر على أذاهم."[٥٠] فمخالطة الناس إيجابية؛ لأنّها تمكن من التأثير فيهم إرشاداً وإصلاحاً.

٥. انفتاحها على الثقافات الأخرى، فهي منفتحة في تعاملها مع الآخرين بهدف تقوية أسس الخير والفضيلة، والتعاون على البرّ والتقوى، فقد أبدى الرسول ﷺ إيجابية إزاء "حلف الفضول"[٥١] . يقول سبحانه وتعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات:١٣)، فالتعارف الذي يحقّق التعاون المثمر

مع أمم الأرض وشعوبها مسلمة كانت أو غير مسلمة، تعدّ ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية أيضا. إن هذا الانفتاح يأذن للمؤمن أن يستفيد من كل فكرة أو معرفة مادية أو علمية أو تقنية أو اجتماعية أو تربوية... لدى الآخرين، بشرط أن لا تقود إلى التبعية للأجنبي، وأن لا تؤدّي إلى الكسل والخمول. وكل تعاون يعود بالنفع والخير على الأمّة فإنّ الثقافة الإسلامية تنظر إليه بإيجابية، ولا تقطع أواصر ذلك التعاون مع الآخرين.

٦. وتظهر الإيجابية في الإحسان إلى كل ما حوله من موجودات، فلا يؤذي الطبيعة من حوله، ولا يقطع شجرا، بل يزرع الشجر حتى لو قامت القيامة، ففي الحديث قوله:"إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل."[٥٢]، أي: إنّ فعل الخير والمعروف يجب أن يتم حتى في أحلك الأحوال وأشدّها هولاً وفزعاً وقسوة. فكأنّ المقصود أن لا يسلم المرء نفسه للحدث، بل يكون هو موجّهاً للحدث ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهكذا تتجلى إيجابية الثقافة الإسلامية في كمّ هائل من التوجيهات، مثل بذل الخير للناس، وصلة الأرحام، والإحسان إلى اليتامى والفقراء والمساكين، والتعامل برفق مع الأهل والولد، وبرّ الوالدين، وإكرام الضيف، ومساعدة الملهوف، وتفريج كربة المكروب، وإحسان الظنّ بالنّاس، والارتفاق في الأرض بلا إخلال ولا عبث، والتسبيح بحمد الله الخالق البارئ المصوّر الرازق.

المطلب الثاني: من آثار ايجابية الثقافة الإسلامية

للثقافة الإسلامية إيجابيات كثيرة، من أبرزها:

١. أنها ترغب في الإقبال على الله تعالى طمعا في رحمته وخوفا من عقابه، وتؤكد مبدأ الاتصال مع الناس جميعاً بهدف ترسيخ أسس المحبة والتعاون بينهم.

٢. تدعو إلى نبذ اليأس والقنوط، لأنّ المؤمن يعي ويدرك أنّ الابتلاءات، والمصاعب والأحزان، والتعب والنصب من طبيعة هذه الحياة ومن سننها ولم ينج من ذلك أحد حتى الأنبياء. وإذا فهمت هذه الأمور على هذا الأساس فإنّ أحدا من المنتمين إلى الثقافة الإسلامية لا يفكر بالانتحار هروبا من هذه السنن، كما هو حال الآخرين في الثقافات الأخرى.

٣. الترقّي في سلّم الكمال، فصبر المؤمن على ما يصيبه من ابتلاء يؤدّي إلى أن تُمحى خطاياه، وترفع درجاته. فالمؤمن يبتلى على قدر دينه، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ عبدا ابتلاه. وهذا يجعل المؤمن دائماً في تفاؤل ورجاء، فتتشكل عنده دافعية فريدة للعمل والبناء تحقيقا للنموّ والرقي وصنع الحضارة. كذلك هو في عبادته لله سبحانه؛ فعبادة الله تقوّي سلطان الروح فيسمو على الماديات، وبذلك يسمو الإنسان ويرتقي في منازل التكريم.

٤. نبذها شعور الكراهية تجاه الآخرين، فالثقافة الإسلامية تدفع أبناءها إلى أن لا يحملوا شعور العداء والكراهية تجاه أمم الأرض وشعوبها، وتحملهم على أن لا يفكروا في تدمير تلك الأمم والشعوب، لأنّها ثقافة ذات رسالة خالدة جاءت رحمة للعالمين، فعن أنس رضي الله عنه قال:"كان غلام يهودي يخدم النبيّ ﷺ فمرض، فأتاه النبيّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبيّ ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار."[٥٣] هذا الشعور يدفع إلى النظر للآخرين بعين الرحمة والشفقة والإحسان رجاء إنقاذهم من جحيم الكفر والوثنية وظلماتها، وإخراجهم إلى نعيم الإيمان وعدالة الإسلام.

المبحث السادس

ثقافة إنسانية

إنسانية الثقافة الإسلامية تعني أنّ الإنسان هو موضوعها. وسعادته: غايتها. وإصلاح نظام حياته: مقصدها. وتعني كذلك أنّها في توجيهاتها وتصوّراتها ذات صبغة إنسانية ليست بذات طابع محلي، أو عرقي، أو إقليمي، أو قومي، أو أنّها ذات طابع يخضع لاعتبارات اللون والجنس واللغة... فهي إنسانية النزعة تهدف إلى إسعاد الإنسان على الأرض كلها، لأنّ المصدر الذي تستمدّ من الثقافة الإسلامية هو الوحي، ويتضح ذلك من حيادية نصوص الوحي وحيادية خطابه المتوجّه فقط إلى الإنسان. لقد استطاعت الثقافة الإسلامية أن تؤلّف بين ألوان شتى، ولغات شتى، وأعراق شتى، وأجناس شتى من الناس، فاجتمع تحت لواء هذه الثقافة أبو بكر العربي القرشي، وصهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي، اجتمع تحت لوائها السيد والمسود، والرفيع والوضيع على أسس من العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات.

المطلب الأول: من مظاهر إنسانية الثقافة الإسلامية

١. تكريمها الإنسان واحترامها حقوقه، من حيث كونه أسمى الكائنات وأرفعها شأناً عند الله سبحانه، فهو الخليفة في الأرض، وهو الفاعل فيها. وقد صانت له حقّه في الحياة وفي حرية التديّن، واحترمت عقله وإرادته، وصانت عرضه وماله، فلا يحلّ سفك دمه إلا بحقّ الله تعالى؛ لأنّه تعالى هو الواهب للحياة، وهو الذي يُنهيها. وسمت به روحاً وجسداً في كل ما شُرع له هدايات.

٢. إرساؤها معيار التفاضل بين الناس، فالنّاس لآدم، وآدم من تراب، فليس في نظر هذه الثقافة تمييز بين النّاس من حيث لغاتهم وألوانهم وأجناسهم، فلا يخضع التفاضل بين النّاس لشيء من هذه الاعتبارات. وإنّ تصنيفهم كذلك لا يخضع لاعتبارات المال أو الجاه أو السلطان، ولكنّ تصنيفهم خاضع لأساس رقيّهم في الإنسانية التي تلبس أبهى دررها حين تصل إلى ذروة الإيمان، فذروة

الكمال الإنساني تكمن في ذروة الكمال الإيماني، وبحسب موقف النّاس من الإيمان وتفاعلهم معه ترتقي الإنسانية أو تنعدم، وتسمو أو تضمحل؛ ولذلك جاء وصف: مشرك، وكافر، ومنافق، وفاسق، وظالم، وخائن، ومجرم تبعا للموقف من الإيمان قرباً منه أو بُعداً، وتحلياً به أو تخلياً عنه، يقول سبحانه: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم"(الحجرات:١٣).

إنّ الإيمان في تصوّر الثقافة الإسلامية هو المعيار الذي يُستند إليه في تقييم النّاس أو تقويمهم، لأنّه يهدف إلى صلاح الإنسانية وسعادتها، يؤكد ذلك قوله ﷺ:"رُبّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه."[٥٤] فهذا الأشعث الأغبر الذي لا يأبه له النّاس، بل يدفعونه كلما طرق باب أحدهم احتقاراً له، وازدراءً به، مع كونه إنساناً مكرّماً عند الله تعالى بحيث لو أقسم على الله لأبرّه. إنّ فضله عند الله لم يكن لعرض ماديّ من الدنيا، بل لإيمانه الذي ارتقى به إلى كمال الإنسانية. ويتقرر هذا المعنى في قوله ﷺ: "إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم."[٥٥]

هذا الإيمان هو الذي ألّف وجمع وغرس مبدأ التحابّ والمساواة والتعاون والتكافل والتآخي والتراحم وكل المعاني الإنسانية بين النّاس. وبهذا يظهر أنّ إنسانية الثقافة الإسلامية تتمثل في المعايير التي وضعتها للتفاضل بين النّاس؛ ليتبارى المنتمون إليها في التحقّق بالإيمان وصولاً إلى السموّ والكمال. وثمرة هذه المباراة نفع الفرد والمجتمع والأمّة والإنسانية عموماً.

٣. قدرتها على استيعاب أمم الأرض وشعوبها في إطار الوفاق والتعاون. إنّ من مظاهر إنسانية الثقافة الإسلامية، أنّ لديها الإمكانات والمؤهلات أن تجمع بين أمم الأرض وشعوبها كلها، وتستقطب هذه الجموع الضخمة على صعيد الإيمان موظّفة لطاقاتها، موجّهة لأعمالها، محدّدة لخطّ سيرها، محقّقة السعادة لكل كبير وصغير، ورجل وامرأة، وفرد وأمّة، جامعة لشتات الإنسان وشتات حياته في كلّ الميادين. لقد ضاقت الشيوعية بأهلها فكان انهيارها سريعاً. وجاءت وليدتها الاشتراكية مشوهة عمياء خالفت الفطرة والعقل والدّين فكان مصيرها الهلاك والزوال.

وها هي الرأسمالية البغيضة تسير بجموع البشرية إلى وضع من العبودية لربّ المال. وتتنكبت جادّة الحقّ والصواب فأغرقت أمم الأرض وشعوبها في مديونيات هائلة من أجل خدمة أهداف استبدادية وعدوانية، أو مصالح ماديّة لأفراد أو مجموعات متسلطة من البشر، وأكل القويّ في ظلها الضعيف، وأجحف الغني بحقّ الفقير، ورجع في عصرها عهد الرقيق ولكن إلى صاحب المال والثروة، ليبقى الأجير أجيراً طول حياته، والفقير فقيراً إلى أن يموت. وتضخمت في ظلها مصلحة الفرد فوصلت إلى ثراء فاحش غير مشروع، كلّ ذلك على حساب مصلحة الجماعة بحيث يستطيع ثري واحد أن يشتري أو يبيع شعباً بأكمله من الشعوب الفقيرة أو المستضعفة. إنّ هذه النظم الاقتصادية الاشتراكية والرأسمالية ليست نظماً إنسانية؛ لأنّها لم تتولد عن ثقافات إنسانية أصلاً. بينما ولّدت الثقافة الإسلامية نظاماً اقتصادياً إنسانياً في أهدافه وغاياته، وهي بهذا مهتدية بقول رسول الله ﷺ:" ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع".(٥٦)

٤. اعترافها بخصوصيات الآخرين :إنّ الثقافة الإسلامية تعترف بما للآخرين من خصوصيات في ظل المجتمع الإسلامي، وعلى الصعيد الاجتماعي تدعو إلى "إقامة مجتمع إنساني حرّ مفتوح تملك جميع العقائد والمذاهب والآراء أن تعيش في ظله، وليس الإكراه عنصراً من عناصر تكوينه ولا بقائه، ولا هو يحمي نفسه بقوّة الأمن، ولا يخيف من لا يدينون بدينه ولا يضيّق عليهم ولا يطردهم من الأرض ولا يدفنهم تحت الأرض. ولا يغتالهم بحركات التطهير؛ ذلك أنّه يعتمد على الإيمان والعقيدة وعلى تطوّع كلّ فرد فيه بصيانة النظام، ومن ثمّ فحدوده مفتوحة بلا حواجز ولا قيود لجميع المسلمين من كل جنس ولون وصقع، ولغير المسلمين من المسالمين، لا بل إنّ المشرك ليملك في الوطن الإسلامي أن يستجير فيجار، ويتحتم حينئذ على الدولة الإسلامية أن تحميه وتوفر له الأمن والطمأنينة.

ولا بدّ لنجاح أيّة دعوة عالمية من وجود مجتمع عالمي حرّ مفتوح يسمح للمخالفين له في الرأي والعقيدة أن يعيشوا في ظلّه آمنين؛ لأنّ الناس لا يمكن أن يدينوا بمذهب واحد ولو كان هذا المذهب من وحي إله، فالذين لم

يدخلوا في سلطان الإسلام من أهل الديانات الأخرى أو أولئك الذين ليس لهم دين، لا يعاديهم الإسلام، ولا يقاطعهم ولا يحاربهم إلا أن يبدأوا هم بالعدوان على المسلمين أو على غير المسلمين، ونظامه يسمح بالتعاون الإيجابي معهم عن طريق المعاهدات التي يحترمها الإسلام كل الاحترام."[(٥٧)]

كذلك، فإنّ الثقافة الإسلامية تتواصل معهم لتبين لهم الحق والهداية، وتظهر لهم جمالياتها في مختلف ميادين الحياة.

٥. احترامها مشاعر الآخرين: لقد جسّدت الثقافة الإسلامية معاني الإنسانية على صعيد بناء العلاقات الاجتماعية، وجعلت التواصل فيما بينهم أعمالاً صالحة، يؤجر الإنسان على فعلها، ويأثم بتركها. وعليه فلا يصح السخرية والاستهزاء بالآخرين. تأمّل قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (الحجرات: ١١). فإذا كان من الظلم أن تسخر منه، أو أن تعيبه بكلمة، فهل يجوز هجره، أو تركه يكابد المرض والفقر والشدّة والألم؟ وتأمّل المعاني الإنسانية في قوله ﷺ: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة."[(٥٨)]

لا تقتصر المعاني الإنسانية بالتواصل على المسلمين فقط، بل تشمل غير المسلمين كذلك ما داموا غير محاربين، يقول سبحانه:" لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (الممتحنة: ٨).

وتاريخ الثقافة الإسلامية حافل بصفحات مشرقة في معاملة المسلمين لغيرهم على مبدأ إنساني عظيم، وفي الحديث أنّ سهل بن حنيف وقيس بن سعد كانا قاعدين بالقادسية، فمرّوا بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنّها من أهل الأرض -أيّ من أهل الذمّة- فقالا: إنّ النبي مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنّها جنازة يهودي،

فقال: أليست نفسا"؟[٥٩] فاحترام النفس الإنسانية إذا كانت جنازة كانت موضع تقدير واهتمام، فكيف إذا كانت على قيد الحياة؟

المطلب الثاني: من آثار إنسانية الثقافة الإسلامية:

تتجلّى إنسانية الثقافة الإسلامية في الآثار الآتية:

١. سموّها بالإنسان إلى أرقى درجات الكمال. ذلك أنّ إنسانية الإنسان لا تقاس بما يملك من مال وثروة، ولا من جاه وسلطان، بل إنّ الإنسانية تتجلى حين يحقق الإنسان ذاته بحسب المعايير المستفادة من نصوص الوحي قرآناً وسنةً. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ (الانفطار:٦،٧) قال ابن عاشور: فيه تذكير للإنسان بموجبات استحقاق الرب طاعة مربوبه فهو تعريض بالتوبيخ. وكذلك إجراء وصف الكريم دون غيره من صفات الله للتذكير بنعمته على الناس ولطفه بهم فإن الكريم حقيق بالشكر والطاعة.والوصف الثالث الذي تضمنته الصلة {فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ} جامع لكثير ما يؤذن به الوصفان الأولان فإن الخلق والتسوية والتعديل وتحسين الصورة من الرفق بالمخلوق، وهي نعم عليه وجميع ذلك تعريض بالتوبيخ على كفران نعمته بعبادة غيره.([٦٠]) ذلك أن من معاني الإنسانية الوفاء بعهد الله، والإيمان بما جاءت به الأنبياء والرسل، والاستقامة على الحق.

وقد حملت سورة في كتاب الله تعالى اسم الإنسان تكريماً له وتأهيلاً ليحقق كمال الإنسانية فيه.

٢. بثها روح التعاون بين أفرادها نحو الخير والفضيلة، وذلك بدافع إنسانيتها، فإنّ آصرة الإنسانية تمكن من البحث عن الهموم والتحديات والقواسم المشتركة بين بني الإنسان، فيتعاون الناس مع بعضهم في القضايا التي تهمهم، مثل: قضايا التلوث البيئي والإشعاع النووي، وارتفاع درجة حرارة الأرض، والإجهاض، والأسرة...

٣. نبذها مبدأ العنصرية على أساس اللون أو الجنس أو اللغة أو العرق... فالنّاس لآدم، وآدم من تراب. وهي بذلك تنهي كل أشكال التمييز والطبقية بين الناس. قالﷺ: يا أيها الناس إن ربكم واحد، وأباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت ؟ قالوا : بلغ رسول الله ﷺ ... الحديث. ([٦١]) ولذلك لم ينشأ أي نظام طبقي في ظل الثقافة الإسلامية على مدى التاريخ.

٤. إنّ تعامل الثقافة الإسلامية مع الآخرين على أساس "وحدة الأصل الإنساني" يفتح المجال واسعاً للتعارف بين أمم الأرض وشعوبها؛ لإيجاد مجتمع إنساني متعاون. وبما أنّها كذلك، فهي أيضاً قابلة لأن تعيش على أيّ أرض، وفي أيّ بقعة يعيش فيها إنسان؛ لأنّ منطقها منطق إنساني يستوعب كلّ أمم الأرض، بينما تحمل الثقافات الأخرى صفة واضعها، وصبغة منتجها المحدود في منطقه وقدراته وإمكاناته.

المبحث السابع

ثباتها ومرونتها

الثقافة الإسلامية ثابتة فيما تستند إليه من حقائق مطلقة، وعقائد يقينية وما ينبثق عن هذه العقائد من شعائر تعبّدية، أو قيم أخلاقية أو سلوكية. لا يصح فيها زيادة، ولا يقبل منها نقصان. أمّا المرونة فهي قابلية تطبيق قيمها على نحو ينسجم مع مراحل تطور حياة الإنسان، والأحوال التي يمرّ بها بحسب طاقاته وإمكاناته.

المطلب الأول: من مظاهر ثباتها ومرونتها

١. أنّ العدل والشورى والتعاون والبرّ والإحسان والصدق والرحمة والمعروف... قيم ثابتة في الثقافة الإسلامية، لا تتغيّر بتغيّر الزمان أو المكان. وإن تغيّرت فهو مؤشر خطير يهدّد الثقافة الإسلامية بالزوال أو الاضمحلال. هذه القيم

الثابتة لا تظهر في أرض الواقع بصورة واحدة ولا بشكل واحد، فالعدل قيمة يمكن أن تظهر بأكثر من ثوب وصورة، كذلك الشورى لا ينحصر تطبيقها في قالب واحد، أو شكل واحد. وصلة الرحم قيمة يمكن أن تظهر بعشرات الصوّر التطبيقية.

٢. أنّ المنكر والظلم -مثلاً- قيم ثابتة في نظر الثقافة الإسلامية، فالمنكر منكر إلى يوم الدّين، والظلم ظلمات في الدنيا والآخرة. وترجع المرونة في تلك القيم إلى منهج تغييرها؛ فمن استطاع أن يغيّر بيده فواجب عليه ذلك، ومن استطاع أن يغير بلسانه فواجب عليه ذلك، لكن الكل يجب أن ينكر المنكر بقلبه. وليس لأحد وقر الإيمان في قلبه أن يأنس بالمنكر أو يسكت عليه، لقوله ﷺ: من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"([٦٢])

٣. كما تظهر مرونة الثقافة الإسلامية في جانب العبادة، وعلى سبيل المثال، فرض الله خمس صلوات في اليوم لبناء الإنسان روحياً، ولكنها لم تقف عند هذه الحدود فمن شاء أن يتطوع فصلاة النافلة ترقى بالإنسان في معراج السموّ الروحي. ومن لم يستطع أن يصلي كل صلاة على وقتها لعذر أو مرض، فإنّه يجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. وإن كان مسافراً فإنّ له أن يقصر الصلاة، ومن لم يستطع أن يصلي قائماً يصلّي قاعداً. ومن لم يستطع أن يصلي قاعداً يصلي مستلقياً.

وفرض صيام شهر رمضان، ووضعه عن ذوي الأعذار المزمنة مقابل إطعام مسكين عن كل يوم. ومن ألمّ به مرض فإنّه يفطر ويقضي لاحقاً، ومن كان مسافراً فإنّ له الإفطار ويقضي لاحقاً. وفتح للإنسان مجال الرقيّ الروحي بصيام النوافل على أن لا يزيد عن أن يفطر يوماً ويصوم يوماً، وذلك أفضل الصيام.

المطلب الثاني: من آثار هذه الخاصيّة

١. إنّ هذه الحقائق الثابتة تدفع إلى الاستقرار، وتبعث في الحياة الإنسانية السّكينة والطمأنينة. وتتيح للإنسان أن يبني حضارته على هذه الأسس الثابتة، لتكون عصيّة على الزوال.

٢. كذلك، فإنّ الثبات خاصية لقيم هذه الثقافة وأخلاقياتها سواء القيم الإيجابية كالصدّق والأمانة والإحسان... التي ستبقى قيما محمودة. أو القيم السلبية كالكذب والخيانة والعدوان... التي ستبقى قيماً مذمومة. هذا الثبات في القيم يدفع كذلك إلى استقرار الحياة بالتعامل المنضبط بين الأفراد والمجتمعات.

٣. من شأن هذا الثبات في القيم أن يكون مقوّماً ينضبط به الفكر الإنساني، فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات، وإذا لم يكن هذا المقوّم الضابط ثابتاً، فلا ينضبط به شيء إطلاقاً. كذلك، إذا دار مع الفكر البشري كيفما دار، ودار مع الواقع البشري كيفما دار، فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة وهي لا ترجع إلى ضابط ثابت، يمسك بهذا الفكر الدوّار، أو بهذا الواقع الدوّار؟[٦٣]

٤. إنّ مرونة الثقافة الإسلامية تدفع أفرادها إلى توثيق انتمائهم لها؛ لأنّهم في ظلها يعيشون في سعة ويسر من أمرهم، فليس ثمّة حرج ولا مشقّة، ولا يأس.

المبحث الثامن

انسجامها مع الكون

يقصد بهذه الخاصية أنّ الثقافة الإسلامية في علاقتها مع الكون تقوم على المودّة والارتفاق، بل تصل إلى حدّ الصداقة والمحبّة، فالثقافة الإسلامية في حقائقها ومبادئها متناغمة ومتجانسة مع حقائق هذا الكون، فثبات نواميس الكون وسننه متسق مع ثبات قيم الثقافة وتصوراتها. وشمول تجلّي آيات الله فيه يتناسق

مع شمول الثقافة الإسلامية لكل متطلبات الحياة الإنسانية. وتوازن الكون ينسجم مع توازن الثقافة.

وشيء آخر في الانسجام هو أنّ أسس تعامل الثقافة الإسلامية مع الكون، تنسجم مع الطبيعة التي خلق الله الكون عليها، فعلاقتها بالكون لا تقوم على أساس من الصراع كما هو شأن الثقافة الغربية. ولا يسودها الخمول والتعطيل، كما في ثقافات أخرى.

المطلب الأول: من مظاهر انسجام الثقافة الإسلامية مع الكون

١. إنّ العلاقة التي تريد الثقافة الإسلامية إنشاءها مع هذا الكون، هي علاقة الارتفاق والتسخير؛ ليجد الإنسان في الكون بغيته من الرزق وأسباب العيش، يقول سبحانه:" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ" (الملك: ١٥). وما دام الكون خزانة لا تنفد من نعم الله؛ فإنّ الإنسان لا يعتدي عليها، بل يحسن التعامل معها، ولا يتجاوز أوامر المنعم سبحانه في هذا التعامل.

٢. الكون كتاب تقرأ فيه آيات إبداع الخالق سبحانه وجمال صنعه فيه للاهتداء إليه سبحانه. كذلك يتعرّف فيه الإنسان على آثار أسماء الله الحسنى، فيعرف آثار اسمه تعالى الخالق، والرازق، والمنعم، والقادر، والقويّ، والعليم، والحكيم... من خلال صنع الله تعالى في الكون. ولهذا فإنّ الثقافة تبني علاقتها مع الكون على الانسجام والتوافق على أساس أنّ معرفة آثار هذه الأسماء مطلب ضروري للإنسان.

٣. إنّ الكون عموماً والأرض على وجه الخصوص بمنزلة أمّ حانية تعطف على الإنسان، وهي مسرح كبير لنشاطه المتنوع وإبداعه في الحياة، وهو مزرعة للآخرة، فلا يصحّ إيذاؤها أو الاعتداء عليها، لأنّ الكون ليس خصماً للإنسان ولا ندّاً له. والعلاقة معه يجبّ أن تكون علاقة صداقة ومحبّة، وفي قوله ﷺ:" هذا أحد جبل يحبنا ونحبّه."[٦٤] ما يؤكدّ هذه العلاقة الحميمة.

المطلب الثاني: من آثار هذا الانسجام

١. قيام تفاعل متكامل مع الكون يكتشف به الإنسان سنن الله تعالى وإبداع صنعه فيه، ويوظف ذلك كله في سعادة الإنسان.

٢. بروز مبدأ الإحسان بصورة عملية تطبيقية في تعامل الإنسان مع الكون. فهو تعامل هادف آمن، بعيد عن العبث والإفساد.

٣. ظهور علاقة حبّ تربط المؤمن مع الكون، كما تظهر علاقة بغض وكراهية تربط غير المؤمن معه، يظهر ذلك من خلال قوله تعالى:" كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ" (الدخان:٢٥-٢٩) يظهر:"أنّها تعلن بصراحة أنّ السموات والأرض التي لها علاقة بالإنسان لا تبكي على جنازة أهل الضلالة عند موتهم، أي: إنّها راضية لفراقهم مرتاحة بموتهم. وإنّها تشير ضمناً أنّ السموات والأرض تبكي على جنازة أهل الهداية عند موتهم فلا تتحمل فراقهم، إذ إن الكائنات جميعاً مرتبطة مع أهل الإيمان، وذات علاقة بهم، وإنّها راضية عنهم، ولأنّهم يعرفون بالإيمان ربّ العالمين فيحملون حبّاً للموجودات، ويقدّرون قيمتها، وليسوا كأولئك الضّالين الذين يضمرون العداء للموجودات ويحقّرونها."[٦٥]

٤. اعتبار الكون كتاباً مقروءاً إلى جانب كتاب الله المسطور، يقرأ الإنسان فيه آيات الله البينات، والدلائل الباهرات على عظيم صنع الله فيه، فيقوى بذلك إيمانه بدلائل الوحدانية المبثوثة في سطور الكائنات.

المبحث التاسع

ثقافة واقعية مثالية

نعني بكون الثقافة الإسلامية ثقافة واقعية، أنّ متطلباتها واقعة في مقدور الإنسان وإمكاناته العقلية والروحية والجسدية، سواء فيما استندت إليه أو فيما طالبت به في سياق التعامل مع الوجود وخالق الوجود. ولا تعني بها ذلك المذهب الأدبي الفكري المادي الملحد، الذي يقتصر في تصويره الحياة والتعبير عنها على عالم المادة، ويرفض عالم الغيب والإيمان بالله، ويصور الإنسان بالحيوان الذي تسيره غرائزه لا عقله.([٦٦])

أمّا كونها مثالية فيعني أنّ حقائقها وقيمها لا تطالها يد العقل، ولا يتوصل لها بنظر واجتهاد، وأنّها -كذلك- تسعى للوصول بالإنسان إلى الكمال، فالإنسان الكامل هو إنسان مثالي.

المطلب الأول: مظاهر واقعية الثقافة الإسلامية ومثاليتها

تتجلى واقعية الثقافة ومثاليتها في مجموعة من المظاهر، منها:

١. كلّ حقائقها وقيمها واقعة ومتطابقة مع الوجود كله، فمثلاً "الله جلّ جلاله" حقيقة واقعة، والإيمان به تسليم بأمر مطابق للواقع، هذه الحقيقة تعدّ -في الوقت نفسه- مثالية، من حيث إنّها ليست من تخرصّات العقل أو صنعه، ومن حيث إنّ الإنسان يرقى إلى المثال والكمال في حال الانتماء الحقيقي لهذه الثقافة، وهكذا كلّ الحقائق والقيم.

٢- لبّت كلّ متطلبات الإنسان - روحاً وجسداً، مادّة وعقلاً - ممّا يحتاجه ويطمح في الوصول إليه من السعادة والراحة والطمأنينة. في الوقت الذي لم تسعف فيه الثقافات الأخرى الإنسان في تحقيق هذا الهدف، فهي إما قد قتلت الروح في الإنسان، وإما أن تكون قد اعتدت على جسده بالتعذيب والأذى رغبة في الطهر والتزكية!

٣. إنّ "الإنسان" الذي أنتجته الثقافة الإسلامية إنساني مثالي بكل المعايير، من حيث فقد نظيره في الثقافات الأخرى، فعلى سبيل المثال ليس هناك من ثقافة قادرة على إنتاج ورثة للأنبياء غير الثقافة الإسلامية، يرشدون البشرية إلى ما يصلحها، ويهدونها إلى الحقّ والخير الفضيلة والبرّ والإحسان.

٤. رفع القيود والأغلال التي تحملتها أمم سابقة بما كسبت، قال تعالى: " لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (البقرة: ٢٨٦). كما إنّها لا تقرّ بوجود خطيئة مسبقة حملها الإنسان بفعل أكل أبيه آدم وأمّه حواء من الشجرة التي نهاهما عنها ربّ العزّة والجلال، ليولد الإنسان مذنباً حاملاً أوزاراً لم تقترفها يداه. قال تعالى:" وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"(الأنعام: ١٦٤).

٥. بيّنت نصوص الوحي أسرار التشريع وفلسفته ومقاصده الواقعية المثالية، فالتشريع في قوله تعالى:" يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا"(النساء: ٢٦-٢٨). "إنّما هو للبيان والهداية والتطهير والإصلاح والعصمة من الميل والانحراف، وتجاوز الصراط المستقيم، والسنن الطبيعية، وهو مع ذلك كلّه تشريع قائم على ملاحظة ما في النّاس من ضعف طبيعي يجعلهم غير قادرين على تحمّل المشاق التي تزيد على الطاقة، أو تثقل عن مألوف الاحتمال."(٦٧)

المطلب الثاني: من آثار هذه الخاصية

١. عَصَمَت الإنسان من الوقوع في اليأس والقنوط إن هو أذنب أو أساء، فالتوبة باب الأمل لكل مقبل على الله تعالى، يقول سبحانه:" قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (الزمر:٥٣) فالإنسان يبقى بين الرجاء والخوف وهذه واقعية كما أنّها توازن.

٢. جعلت من الثقافة الإسلامية المعيار الحاكم والقدوة والمثل لكل الثقافات، فالعقول لا تستطيع أن تنسج على منوالها، فهي مثالية من حيث إنّها فوق إمكانات العقل البشري وقدراته ولذلك لا يمكن مجاراتها أو معارضتها، أو إبدالها أو تحريفها بسبب انتسابها إلى الوحي الخالد، يقول سبحانه:" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(الحجر:٩).

٣. استحالة اندثارها وذوبانها بفعل الإنسان وكيده، سواء أكان ممن يدّعي الانتساب إليها أم من أعدائها المتربصين بها. إنّ هذه الثقافة المنتسبة إلى الوحي ستبقى عصية على كلّ محاولات الكيد والتآمر. وبهذا تتجسّد مثالية الثقافة الإسلامية في ديمومتها واستمراريتها وعدم تآكلها أو موتها، فواقعيتها ومثاليتها تتجسد في بقائها واستمرارها.

٤. تفيؤها منزلة رفيعة تتهيأ بها لأن تكون قبلة المثقفين، وقبة الناس أجمعين، تستوعب حاجاتهم، وتنظم شؤون حياتهم، وتضبط الروابط والعلاقات التي تحكم سير حياتهم ومعاشهم على أسس من المساواة والعدالة بعيداً عن الظلم والجور والعدوان.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفق لإتمام هذا البحث في خصائص الثقافة الإسلامية، والذي تمخض عن عدد من النتائج يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١. الثقافة الإسلامية معرفة قيمية مستمدة من هداية الوحي وتعاليمه تنظم علاقة الإنسان بالوجود ومفرداته، وقد تفرّدت بجملة من الخصائص استقلت بها وتميزت عن ثقافات الآخرين.

٢. تختلف خصائص الثقافة الإسلامية عن الخصائص العامة لدين الإسلام، كما تختلف عن خصائص التصوّر الإسلامي من حيث المظهر والأثر.

٣. لخصائص الثقافة الإسلامية مظاهر تتجلى فيها، وآثار تصوّر حقيقتها وتحقّق استقلاليتها عن سائر الثقافات، وتتيح للمثقف المسلم أن يتعامل مع الخالق جلّ جلاله، ومع الكون المخلوق بكل مفرداته من إنسان وبيئة وأفكار وطبيعة، باستقامة وأمانة وعدالة وموضوعية بعيداً عن التفسيرات الباطلة، والخرافات والأباطيل التي نسجتها الثقافات الأخرى حول علاقة الإنسان بخالقه، أو بالكون من حوله.

٤. من خصائص الثقافة الإسلامية: استنادها إلى الوحي، وانسجامها مع الفطرة والعقل، واتصافها بالشمول، والتوازن، وإيجابيتها، وإنسانيتها، واختصاصها بالثبات والمرونة، وانسجامها مع الكون، وهي –كذلك – مختصة بالمثالية والواقعية.

٥. إنّ الثقافة الإسلامية قد رتبت ونظمت علاقة الإنسان بالكون، وجعلته مستفيداً من كل ما سخر الله سبحانه له فيه بعيداً عن التدمير والإتلاف، أو الاعتداء عليه، أو استنزاف موارده لغير حاجة ماسة تدعو إلى ذلك.

٦. يظهر من خلال هذه الخصائص قدرة الثقافة الإسلامية على استيعاب عموم الناس ضمن لوائها بقطع النظر عن ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم وأعراقهم،

وقدرتها على تنظيم أسس العيش الآمن بين الناس جميعاً. فضلاً عن قدرتها على التعامل مع الآخرين تأثيراً وتأثراً ضمن معاييرها القيمية الضابطة والدقيقة التي تحفظ ثوابتها ومعتقداتها.

٧. إنّ الثقافة الإسلامية –لما اشتملت عليه من خصائص- ثقافة خالدة، بخلود المصدر الذي تستمدّ منه قيمها ومعاييرها الضابطة في مختلف الصعد، ولن يأتي عليها زمان تكون فيه خبراً بعد عين!

الهوامش

١. عضو هيئة التدريس بقسم الكتاب والسنة بكلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
٢. انظر: دوني كوش. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص ٢٠. نقلاً عن: www.awu-dam.org.
٣. انظر: عمر عودة الخطيب. لمحات في الثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩. ص ٣٣.
٤. عزمي طه السيّد ، الثقافة الإسلامية، عمّان: دار المناهج، ١٩٩٦. ص٢٧.
٥. رحيل غرايبة، الثقافة الإسلامية، (مخطوط) عمّان: مكتبة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ٢١.
٦. الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٥.
٧. مالك بن نبي. شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦هـ، ص ٨٣.
٨. آثرنا تسمية هذه الخاصية بهذا الاسم بدلاً من "الربانية" لما أنّ الوحي يشكل الأساس الأهم في بناء الثقافة الإسلامية، لكن ثمة مصادر أخرى تشكل هذه الثقافة، لا يصح وصفها معها بأنّها ربانية.
٩. حديث صحيح، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني، الرياض: مكتبة المعارف. ج ٤، ص ١٦٨. ح ١٦٢٧. والحديث رواه الحاكم في المستدرك، والطبراني في الكبير والأوسط.
١٠. محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح،، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ . كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام. ج١، ص ٢٧ح ٥٠.
١١. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب ما قيل في ذي الوجهين. ح ٥٧١١.
١٢. حديث صحيح، انظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام لمحمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ. ص ٧٣، ح ٩١. والحديث أخرجه أحمد وأبو داوُد والنسائي وابن ماجة.
١٣. علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ص ٢١٥.

١٤. محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، عند تفسير آية ٣٠ من سورة الروم. www. Altafsir.com.
١٥. إبراهيم بن عمر البقاعي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ . ج ٦، ص ٦٥٤.
١٦. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ج٩، ص ٤٠١، ح ٣٦٠٥.
١٧. محمد بن إسماعيل الصنعاني، سبل السلام، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٩هـ. ج ٣، ص ١١٠.
١٨. محمد بن محمد الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد، تقديم عادل العوّا، بيروت: دار الأمانة، ١٣٨٨هـ. ص٦٩-٧٠.
١٩. انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ. ج ٢، ص ٦٢.
٢٠. انظر : عزمي طه السيد، الفلسفة : مدخل حديث: عمّان: دار المناهج، ٢٠٠٣م. ص ٧٢-٧٧ .
٢١. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه، ج١، ص٦٥، ح٣١.
٢٢. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب البرّ والصلة، باب فضل إزالة الأذى، ج٤، ص ١٢٠٢، ح ٩٢١.
٢٣. المصدر السابق، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذّبح، ج٣، ص ٨٤٥١، ح ٧٥.
٢٤. المصدر السابق، كتاب البرّ والصلة، باب تحريم تعذيب الهرّة، ج٤، ص ٢٢٠٢، ح ٣٣١.
٢٥. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم، ج٤، ص١٦٧١، ح ٣٥١.
٢٦. أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكر، مصر: مؤسسة قرطبة. ج ٢٢، ص ٨.
٢٧. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض، ج ٤، ص ٥١٢٢، ح ٩١.

٢٨. انظر: محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، بيروت: دار الكتب العلمية، ج٦، ص ٣٣٢
٢٩. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد...، ج١، ص ٩٥، ح ٥٠ .
٣٠. محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبّان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤١٤هـ. كتاب الرقائق، باب الفقر والزهد والقناعة. ج٢، ص ٤٤٩،ح ٦٧٤.
٣١. عبد الرؤوف المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، مصر: المكتبة التجارية، ١٣٥٦. ج٥، ص ٢٠٥.
٣٢. ٣٢ - البخاري، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب من جعل لأهل العلم أيّاما مخصوصة، ج ١، ص ٣٦١، ج ٧٠.
٣٣. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما يكره من السجع، ج ١١، ص ٨٣١، ح ٧٣٣٦.
٣٤. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، ج ٣، ص ٦٣، ح ٠٥١١.
٣٥. المصدر السابق نفسه، نفسه، ح ١٥١١.
٣٦. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر، ج ٤، ص ٧٠١٢، ح ٣١.
٣٧. أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، القاهرة: مؤسسة قرطبة، دون تاريخ. ج ٢، ص ٩٩١.
٣٨. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج ١، ص ٣٩، ح ٩٣.
٣٩. قال أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار : أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة، ورجاله ثقات رجال مسلم، لكن الراوي تردد في رفعه. هامش الإحياء ج٢، ص ١٨٦. وأشار الألباني إلى صحته في غاية المرام، ج١، ص ٢٧١. ح٤٧٢.
٤٠. حديث صحيح، انظر : صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته لمحمد ناصر الدين الألباني دمشق: المكتب الإسلامي، دون تاريخ. ج١، ص ١١٦٦، ح ١١٦٥٩.
٤١. محمد عبد الله دراز، دارسات إسلامية، الكويت: دار القلم، ١٩٧٤. ص ١٦٧-١٦٨.
٤٢. انظر : المرجع السابق، ص ١٦٩.

٤٣. ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٢. ص ٤١٥.
٤٤. سيد قطب. في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ١٤٠٠هـ، ط/ تاسعة. ج ١، ص ١٣١.
٤٥. انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، الشعاعات، ترجمة: إحسان الصالحي. اسطنبول، سوزلر للنشر،١٩٩٣. ص ٤٠.
٤٦. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب البرّ والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ج٤، ص٢١٩٩، ح ٢٥.
٤٧. انظر: بديع الزمان سعيد النورسي، المثنوي العربي النوري، تحقيق: إحسان الصالحي، اسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٤. ص ٤٧٣.
٤٨. الترمذي، السنن، كتاب البرّ والصلة، باب ما جاء في الإحسان، ج ٤، ص ٤٦٣، ح٢٠٠٧.
٤٩. محمود بن عمر الزمخشري. الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي البجاوي ومحمد إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية. ج ١، ص ٥٧.
٥٠. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبيّ، ج ٣، ص ٢١٩، ح ١٣٥٦.
٥١. هو حلف بين قبائل قريش تحالفوا على أن يردوا الفضول إلى أهلها، وأن لا يعد ظالماً مظلوماً. انظر: البداية والنهاية لإسماعيل بن كثير الدمشقي، بيروت: دار التعارف، دون تاريخ. ج ٢، ص ٢٩١.
٥٢. أحمد بن حنبل الشيباني، المسند، ج ٣، ص ١٩١.
٥٣. أبو داوُد سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر بدون تاريخ. كتاب الجنائز، باب في عيادة الذمّي، ج ٢، ص ٢٠١، ح ٣٠٩٥.
٥٤. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب البرّ والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، ج ٤، ص ١٩٨٧، ح ٤٣.
٥٥. المصدر السابق، كتاب البرّ والصلة، باب فضل الضعفاء... ج ٤، ص ٢٠٢٤، ح ١٣٨.
٥٦. ٥٦- محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠. ج ٤، ص ١٨٤ ح ٧٣٠٧. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

٥٧. انظر: راشد الغنوشي، حقوق المواطنة. واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣. ص ٧٤.
٥٨. البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، ج ٣، ص ٩٧١، ح ٢١٣١.
٥٩. المصدر السابق، كتاب المظالم، باب لا يسلم المسلم المسلم، ج ٥، ص ٧٩، ح ٢٤٤٢.
٦٠. محمد الطاهر ابن عاشور. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للطباعة والنشر، ١٩٩٧، ج ٣٠، ص ١٧٥.
٦١. نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ. ج ٣، ص ٥٨٦. ح ٥٦٢٢، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٠٣، ح ٢٧٠٠.
٦٢. مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان، ج ١، ص ١٧٦، ح ٧٠.
٦٣. انظر: سيد قطب، خصائص التصوّر الإسلامي، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٠. ص ٩١.
٦٤. البخاري، كتاب المغازي، باب هذا أحد... ج ٧، ص ٧٧٣، ح ٣٨٠٤
٦٥. بديع الزمان سعيد النورسي، اللمعات، ترجمة: إحسان الصالحي، اسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٣م ص١٣٢،.
٦٦. الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الموسوعة الميسر في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مراجعة ماجد الجهني. ج١، ص ١٦٥.
٦٧. محمد محمد المدني، المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، القاهرة: مطبعة مخيمر، دون تاريخ. ص ١٧.

المصادر والمراجع

١. الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الرياض: مكتبة المعارف.

٢. الألباني، محمد ناصر الدين. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، دمشق: المكتب الإسلامي، دون تاريخ.

٣. الألباني، محمد ناصر الدين. غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، بيروت: المكتب الإسلامي،١٤٠٥هـ

٤. البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ .

٥. البقاعي،إبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ .

٦. البيضاوي، ناصر الدين. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: دار الفكر، ١٩٨٢

٧. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. السنن، تحقيق : أحمد شاكر وآخرون بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

٨. الجرجاني، علي بن محمد. التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

٩. الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، بيروت: دار الكتب العلمية،١٩٩٠.

١٠. ابن حبان، محمد بن حبان البستي. صحيح ابن حبّان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ

١١. الخطيب، عمر عودة. لمحات في الثقافة الإسلامية. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩.

١٢. دراز، محمد عبد الله. دارسات إسلامية، الكويت: دار القلم، ١٩٧٤.

١٣. الزمخشري، محمود بن عمر. الفائق في غريب الحديث. تحقيق: علي البجاوي ومحمد إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية.

١٤. السجستاني، أبو داوُد سليمان بن الأشعث. السنن ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، دون تاريخ.

١٥. السيد، عزمي طه. الثقافة الإسلامية، عمّان: دار المناهج،. ١٩٩٦.

١٦. السيد، عزمي طه. الفلسفة : مدخل حديث، عمّان: دار المناهج،٢٠٠٣.

١٧. الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي، موقع التفسير، مؤسسة آل البيت الأردنية. www. Altafsir.com.

١٨. الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل. المسند، القاهرة: مؤسسة قرطبة، القاهرة، دون تاريخ.

١٩. الصنعاني، محمد بن إسماعيل. سبل السلام، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٩هـ.

٢٠. ابن عاشور. محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: دار سحنون للطباعة والنشر، ١٩٩٧.

٢١. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد البكر، مصر: مؤسسة قرطبة.

٢٢. العراقي، أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، مطبوع بهامش الإحياء.

٢٣. غرايبة، رحيل. الثقافة الإسلامية، (مخطوط). عمّان: مكتبة المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٢٤. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ.

٢٥. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. الاقتصاد في الاعتقاد، تقديم عادل العوا، بيروت: دار الأمانة، ١٣٨٨هـ.

٢٦. الغنوشي. راشد. حقوق المواطنة، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣.

٢٧. قطب. سيّد. خصائص التصوّر الإسلامي، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٠.

٢٨. قطب، سيد. في ظلال القرآن، بيروت: دار الشروق، ١٤٠٠هـ، ط/ تاسعة.

٢٩. ابن كثير، إسماعيل بن كثير الدمشقي. البداية والنهاية، بيروت: دار التعارف، دون تاريخ.

٣٠. كوش، دوني. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. نقلاً عن: www.awu-dam.org.

٣١. المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، بيروت: دار الكتب العلمية، دون تاريخ.

٣٢. المدني، محمد محمد. المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، القاهرة: مطبعة مخيمر، دون تاريخ.

٣٣. المناوي، عبد الرؤوف. فيض القدير شرح الجامع الصغير، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦هـ .

٣٤. بن نبي، مالك. شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، ١٤٠٦هـ ،

٣٥. الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الموسوعة الميسر في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مراجعة ماجد الجهني.

٣٦. النورسي، بديع الزمان سعيد. الشعاعات، ترجمة: إحسان الصالحي، اسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٣.

٣٧. النورسي، بديع الزمان سعيد. اللمعات، ترجمة: إحسان الصالحي، اسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٣.

٣٨. النورسي، بديع الزمان سعيد. المثنوي العربي النوري، اسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩٤.

٣٩. النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم. الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ.

٤٠. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. بيروت: دار الفكر، ١٤١٢هـ.